مدخل إلى العلوم الإسلامية

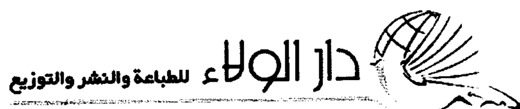
# الكلام

الأستاذ الشهيد مرتضى المطهري

دار الولاء
بيروت - لبنان




# الكلام




لبنان - بيروت - حارة حريك - شارع دكاش - سنتر فضل الله
تلفاكس: 00961 1 545133 - 00961 3 689496 - ص.ب. 327/25
www.daralwalaa.com - info@daralwalaa.com
E-mail:daralwalaa@yahoo.com

الكتاب: الكلام
الأستاذ الشهيد مرتضى المطهري
ترجمة: حسن علي الهاشمي
مراجعة وإعداد الشيخ حسين بلوط
الناشر: دار الولاء للطباعة والنشر

الطبعة الأولى

٢٠٠٩م - ١٤٣٠هـ

مدخل إلى العلوم الإسلامية

# الكلام

الأستاذ الشهيد مرتضى المطهري

ترجمة: حسن علي الهاشمي

راجعه وأعدّ أسئلته الشيخ حسين بلوط

دار الولاء

بيروت - لبنان

# تمهيد

## ما هو المراد من العلوم الإسلامية؟

يجدر بنا في هذا الدرس أن نتحدّث قليلاً عن كلمة «العلوم الإسلامية» وضع لها تعريفاً جلياً؛ ليتضح مرادنا من العلوم الإسلامية، وماهية الكلّيات التي نحاول معرفتها في هذه الدروس.

إنّ العلوم الإسلامية، التي هي موضوع بحثنا، يمكن تعريفها على أنحاء عدّة، وتبعاً لاختلاف التعاريف تختلف المواضيع:

1- العلوم التي تدور موضوعاتها أو مسائلها حول أُصول الإسلام وفروعه، أو التي يمكن من خلالها إثبات أُصول الإسلام وفروعه، وهي: القرآن والسنّة، من قبيل: علم القراءة، علم التفسير، علم الحديث، علم الكلام النقلي[1]، علم الفقه، علم الأخلاق النقلي[2].

2- العلوم المذكورة آنفاً، بالإضافة إلى العلوم المُمهِّدة لها، والعلوم المُمهِّدة من قبيل: الأدب العربي، من الصرف والنحو واللغة والمعاني والبيان والبديع وغيرها، ومن قبيل: الكلام العقلي، والأخلاق العقلية، والحكمة الإلهية، والمنطق، وأُصول الفقه، والرجال، والدراية.

3- العلوم التي تعدُّ ـ بنحو من الأنحاء ـ جزءاً من الواجبات الإسلامية، وهي التي يجب على المسلمين تحصيلها، ولو على نحو

١. سيتضح فيما بعد أن علم الكلام على قسمين: عقلي ونقلي، وسيتضح الفرق بينهما.

٢. الأخلاق أيضاً على قسمين كعلم الكلام: عقلية ونقلية، وسنتحدث فيما بعد عن ذلك أيضاً.

الواجب الكفائي، والتي يشملها الحديث النبويّ المعروف: «طلب العلم فريضة على كلّ مسلم».

إن العلوم التي تعتبر موضوعاتها ومسائلها من الأصول أو الفروع الإسلامية أو التي يستند إليها في إثبات تلك الأصول والفروع، من الواجب تحصيلها؛ لأنّ الإحاطة بأُصول الدين الإسلامي من الواجبات العينية على كلّ مسلم، والإحاطة بفروعها واجب كفائي، كما تجب دراسة القرآن والسنّة أيضاً؛ إذ لا يتيسر من دونهما معرفة أُصول الإسلام وفروعه.

وهكذا تجب دراسة العلوم المُمهِّدة لتحصيل هذه العلوم من باب (وجوب مقدمة الواجب)، أي: ينبغي أن يكون هناك دائماً أفراد ملمّون بهذه العلوم بالمقدار الكافي على الأقل. بل ينبغي أن يكون هناك دائماً مَنْ يساهم في تطوير العلوم الأساسية والتمهيدية، ويعمل على إثرائها وتنميتها باستمرار.

وقد سعى العلماء المسلمون طوال القرون الأربعة عشر إلى توسيع رقعة العلوم المذكورة، وقد حققوا في هذا الصدد نجاحات ملحوظة، وستطّلعون تدريجياً على نشوء هذه العلوم ونموّها وتحوّلها وتكاملها.

إنّ العلوم التي هي باب الفريضة والتي يجب على المسلمين تحصيلها غير منحصرة في العلوم المتقدمة، فكل علم توقفت تلبية الحاجات الضرورية للمجتمع الإسلامي على معرفته والتخصص والاجتهاد فيه، وجب على المسلمين تحصيله من باب المقدمة التهيؤيّة.

ولكي نوضح أن الإسلام دين جامع وشامل، وأنه لم يكتف بسلسلة

من المواعظ الأخلاقية والفردية فقط، وأنه دين يعمل على صيانة المجتمع، نقول: إنّ الإسلام عمد إلى كلّ ما يحتاج إليه المجتمع فأوجبه على الكفاية، فإذا كان المجتمع بحاجة إلى طبيب على سبيل المثال، يغدو الطبّ واجباً كفائياً، أي: يجب توفير الأطباء بالمقدار الكافي، وإذا لم يكن هناك أطباء بالمقدار الكافي وجب على الجميع أن يُمهِّدوا الأرضية بغية توفير الأطباء، ورفع هذه الحاجة، وبما أن الطبّ يتوقف على تحصيل علوم الطب يكون تحصيلها حتماً من الواجبات الكفائية، وهكذا الأمر في التعليم، والسياسة، والتجارة، وأنواع الفنون والصناعات الأُخرى.

وفي الموارد التي يتوقف فيها حفظ المجتمع الإسلامي وكيانه على تحصيل العلوم والصناعات بأرفع مستوى ممكن يجب تحصيل تلك العلوم بذلك المقدار، ومن هنا يعتبر الإسلام جميع العلوم الضرورية للمجتمع الإسلامي فريضة، وعليه سوف تشمل العلوم الإسلامية ـ بحسب هذا التعريف الثالث ـ الكثير من العلوم الطبيعية والرياضية «التي يحتاج إليها المجتمع الإسلامي».

4 ـ العلوم التي تكاملت في الحواضر العلمية الإسلامية، أعمّ من التي تعدّ في نظر الإسلام واجبة وضرورية، وأعمّ من التي تعدّ في نظره محظورة إلاّ أنّها على كلّ حال شقّت طريقها في المجتمع الإسلامي، من قبيل: علم التنجيم الأحكامي «لا علم التنجيم الرياضي»، فإننا نعلم بإباحة علم التنجيم، كونه جزءاً من العلوم الإسلامية المباحة، فيما إذا ارتبط بالمعادلات الرياضية التي تدرس أحوال الكون، وتقوم ببيان سلسلة من التنبؤات القائمة على الأُسس الرياضية كالخسوف

والكسوف، وأمّا الخارج منها عن حدود المعادلات الرياضية ـ المتعلق ببيان سلسلة من الروابط الخفيّة بين الحوادث السماوية والوقائع الأرضية، منتهياً إلى سلسلة من التكهنات بشأن الحوادث الأرضية ـ فهو حرام في نظر الإسلام، ولكن برغم ذلك تجد كلا هذين النوعين من علم التنجيم موجوداً في مهد الثقافة والحضارة الإسلامية[3].

وبعد أن عرضنا تعاريف مختلفة لكلمة «العلوم الإسلامية»، واتضح أن هذه الكلمة تستعمل في الموارد المختلفة في معانٍ متعددة، وأن بعض تلك المعاني أوسع من بعض أو أضيق، نشير إلى أن المراد من العلوم الإسلامية التي نريد أن نتحدث عنها بشكل كلي هو ما ذكرناه في التعريف الثالث، أي: العلوم التي يعدّها الإسلام ـ بنحو من الأنحاء ـ فريضة ذات تاريخ عريق في الثقافة والحضارة الإسلامية، والتي تحظى باحترام المسلمين وتقديرهم بوصفها أداة لرفع حاجة، أو وسيلة إلى إنجاز فريضة من الفرائض.

وفي هذا الدرس ينبغي للطلاب الأعزاء أن يدركوا أن الثقافة الإسلامية تشكل ثقافة خاصة بين الثقافات العالمية، ولها روحها الخاصة بها، وسلسلة من المميزات الخاصة، ومن أجل معرفة ثقافة من الثقافات، أنها ذات أصالة مستقلة، تتمتع بحياة وروح خاصة، أو أنها مجرد تقليد للثقافات الأخرى ـ وربما كانت مجرد استمرار للثقافات السابقة ـ ينبغي معرفة بواعث تلك الثقافة وهدفها وحركتها وطريقة

٣. للاطلاع على العلوم التي تكاملت أو دخلت في الثقافة الإسلامية يراجع كتاب: (كارنامه إسلام)، لمؤلفه الدكتور: عبد الحسين زرّين كوب.

نموّها، وكذا سماتها البارزة وإخضاعها للفحص الدقيق، فإذا تمتعت ثقافة ما ببواعث خاصة وكان لها هدفها وحركتها الخاصة بها، وكانت طريقة حركتها مغايرة لطريقة حركة سائر الثقافات، وكان لها سماتها البارزة، عدّ ذلك دليلاً على أصالة تلك الثقافة واستقلالها.

وبديهي أن إثبات أصالة ثقافة وحضارة ما لا يعني بالضرورة أنها لم تستفد من الثقافات والحضارات الأُخرى، لأن هذا مستحيل؛ إذ ما من ثقافة في العالم إلاّ استفادت من الثقافات والحضارات الأُخرى، وإنما الكلام في كيفية الاستفادة والانتفاع.

فأحد أنواع الانتفاع أن تقوم ثقافة باستيراد ثقافة أو حضارة أُخرى بلا أدنى تصرف فيها، والنوع الآخر أن تقوم الثقافة بعملية استيعاب الثقافة والحضارة الأُخرى، كما تصنع الخليّة الحيّة في اجتذاب المواد وهضمها وتحويلها إلى موجودات وكائنات جديدة.

والثقافة الإسلامية من النوع الثاني، فقد نمت كالخليّة الحيّة، إذ اجتذبت الثقافات الأُخرى من اليونانية والهندية والإيرانية وغيرها وحوّلتها إلى كائن جديد له سماته الخاصة. وقد اعترف الباحثون في تاريخ الثقافة والحضارة بأن الحضارة الإسلامية من أكبر الحضارات والثقافات البشرية.

**أين تكون تكوّنت هذه الخليّة الحيوية الثقافية، وعلى يد من؟ ومن أي نقطة بدأ تكاملها؟**

إنّ هذه الخليّة ـ كسائر الخلايا التي تكون صغيرة وغير محسوسة في بدايتها ـ ظهرت في المدينة المنوّرة على يد الرسول الأكرم (صلّى الله

عليه وآله وسلم)، فبدأ النوع الأوّل من العلوم الإسلامية أعماله..

ولمزيد من الاطلاع ينبغي الرجوع إلى الكتب الخاصة[4].

وينبغي التذكير بأن العلوم الإسلامية تنقسم إلى قسمين: العلوم العقلية، والعلوم النقلية.

٤. راجع: "كارنامه إسلام"، تأليف: الدكتور زرّين كوب، و"تاريخ التمدن الإسلامي"، لمؤلفه: جرجي زيدان، ج3، و"خدمات متقابل إسلام وإيران"، بقلم المؤلف، القسم الثالث.

الدرس 1

# علم الكلام

إن الكلام من العلوم الإسلامية، وهو علم يبحث فيه عن العقائد الإسلامية، أي ما يجب الاعتقاد والإيمان به من وجهة نظر الإسلام، فيقوم بتوضيحها والاستدلال عليها والدفاع عنها.

يرى علماء الإسلام: أن مجموع التعاليم الإسلامية على ثلاثة أقسام:

1- **قسم العقائد**، وهي المسائل والعلم التي يجب التعرف عليها والإيمان بها، من قبيل: التوحيد، وصفات الباري تعالى، والنبوة العامة والخاصة، وما إلى ذلك من المسائل الأخرى وهناك بالطبع بعض الاختلافات بين الفارق الإسلامية فيما هو داخل في أصول الذين وما هو خارج عنها.

2- **قسم الأخلاق**، وهو المسائل التي تتحدث عن الصفات الروحية والسجايا الأخلاقية التي ينبغي للإنسان أن يتحلى بها، من قبيل: العدالة والتقوى والشجاعة والعفة والحكمة والاستقامة والوفاء والصدق والأمانة وغيرها من الأمور.

3- **قسم الأحكام**، وهي المسائل التي تتعلق بأعمال الإنسان وأفعاله، من قبيل: الصلاة والصيام الحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والبيع والإجارة والنكاح الطلاق وتقسيم الإرث،

وغيرها من الأمور.

أما القسم الأول من هذه الأقسام فيناط بعلم الكلام، وأما الثاني فيتكفله علم الأخلاق، وأما الثالث فيقع على عاتق علم الفقه.

والمقسم في هذا التقسيم هو (العلوم الإسلامية) الواقعة في صميم الإسلام، دون العلوم التمهيدية التي تقع مقدمة للتحقيق بشأن العلوم الإسلامية، من قبيل: الأدب والمنطق، بل والفلسفة أحياناً.

وقد لوحظ في هذا التقسيم جهة ارتباط التعاليم الإسلامية بالإنسان، فإن (العقائد) ترتبط بعقل الإنسان وفكره، وعلم (الأخلاق) يرتبط بسجاياه وخصاله، وعلم (الفقه) يرتبط بأفعاله وسلوكه.

وسيتضح من خلال التعرض لكليات علم الفقه: أن الفقه وإن كان من الناحية التي يبحثها الفقهاء علما واحدا، إلا انه من ناحية أخرى يحتوي علوما عديدة.

ومهما كان، فإن علم الكلام هو علم العقائد الإسلامية، وقد أطلق عليه في السابق علم (أصول الدين) أو (التوحيد والصفات).

## بداية علم الكلام

ليس بالإمكان تحديد بداية علم الكلام وتاريخ نشوؤه بين المسلمين بشكل دقيق، إلا أن المتسالم عليه أن بعض المسائل الكلامية، من قبيل: الجبر والاختيار، والعدل قد ظهرت بين المسلمين في النصف الثاني من القرن الهجري الأول. وربما أمكن القول: أن أول مدرسة صدرت عنها هذه المسائل هي مدرسة الحسن البصري (ت: 110 هـ).

وقد ظهر في تلك الفترة الزمنية شخصان دافعا عن إرادة الإنسان وحريته دفاعا شديدا، هما معبد الجهني وغيلان الدمشقي، كما ظهر في قبالهما أشخاص دافعوا عن الجبر، وعندها عرف أنصار الاختيار بـ (القدريّة)، ومنكروه بـ (الجبريّة).

وبالتدرج انسحب الخلاف بين هاتين الفرقتين إلى مجموعة من المسائل الأخرى في الإلهيات والطبيعيات والاجتماعيات وبعض المسائل المتعلقة بالإنسان والمعاد، فكانت مسألة الجبر والاختيار إحدى المسائل الاختلافية، ومنذ ذلك الحين عُرف القدريون بـ(المعتزلة)، والجبريون بـ (الأشاعرة).

يصرّ المستشرقون أباعهم على أنّ بداية البحوث الاستدلالية في الإسلام نشأت من ذلك الوقت، مع أن الحقيقية هي أن البحوث الاستدلالية حول أصول الإسلام بدأت مع نزول آيات القرآن الكريم وتفسيرها بالسنة النبوية وخطب أمير المؤمنين(ع) سوى أن أسلوب البحث حولها كان يختلف عن الأسلوب الذي سلكه المتكلمون من المسلمين.

## التحقيق أو التقليد

أقام القرآن الكريم الإيمان على دعائم التعقل والتفكير، فدأب على دعوة الناس إلى استخدام العقل لبلوغ الإيمان، ولم يكتف بمجرد (التعبد) فيما يجب على المسلم أن يؤمن به ويعتقده، وعليه لا بد من التحقيق منطقياً في أصول الدين، من قبيل: أن الله سبحانه موجود،

وأنه واحد، وان محمد بن عبد الله(ص) رسوله، فلا بد من بحث هذه الأمور والاستدلال عليها منطقيا، ومن هنا تأسس علم (أصول الدين) منذ القرن الهجري الأول.

ومع انفتاح الإسلام على الأمم والقوميات المختلفة وهي تحمل سلسلة من الأفكار الخاصة بها، ومع تعايش المسلمين مع أرباب الديانات الأخرى كاليهود والنصارى والمجوس والصابئين، وما كان يحتدم بينهم وبين المسلمين من المناقشات المذهبية، وعلى الخصوص مع ظهور (الزنادقة) الذي كانوا يسيرون في تيار معارض للدين، ومن خلال الالتفات إلى الحرية الفكرية التي وفرها خلفاء الدولة العباسية (بشكل لا يصطدم مع سياستهم الخاصة)، ومع ظهور الفلسفة في العالم الإسلامي الذي أنتج بدوره بعض الشبهات والشكوك، أحس المسلمون بضرورة الحقيق في المباني والأسس العقائدية في الإسلام والدفاع عنها أكثر من ذب قبل، بذلك ظهر بعض المتكلمين البارزين في القرن الثاني والثالث والرابع للهجرة النبوية.

## المسألة الأولى

يبدو أن أول مسألة وقع النزاع فيها بين المسلمين هي مسألة (الجبر والاختيار) وهذا شيء طبيعي جدا بالنظر إلى ارتباط هذه المسألة الوثيق بمصير الإنسان، مما يدعو كل إنسان عاقل للبحث فيها، فانك لا تجد مجتمعا بلغ الناس فيه مرحلة الكريم وحيث على تحريك العقل، والتفكير بشأن هذه المسألة الأساسية[1].

١ راجع كتاب الإنسان والمصير (إنسان وسرنوشت) للمؤلف.

وعليه فلا معنى لأن نبحث عن منشأ آخر لطرح هذه المسألة في العالم الإسلامي، إلا أن المستشرقين حاولوا بشتى الطرق - من أجل نفي أصالة العلوم الإسلامية - أن يوجدوا لجميع لعلوم الإسلامية جذوراً خارج العالم الإسلامي، على الخصوص في العالم المسيحي، ومن هنا فقد بذلوا سعيهم للبحث عن جذور لعلم الكلام خارج العالم الإسلامي كما بذلوا نفس المساعي بشأن علم النحو والعروض (وربما المعاني والبيان والديع) والعرفان الإسلامي.

أدى البحث في الجبر والاختيار الذي يتضمن القضاء والقدر - فهو من ناحية ارتباطه بالإنسان بحث في (الجبر والاختيار) ومن ناحية ارتباطه بالله تعالى بحث في (القضاء والقدر) - إلى البحث في (العدل، لأن هناك ترابطاً وثيقاً بين الجبر والظلم من جهة، والاختيار والعدل من جهة أخرى.

كما أدى مبحث (العدل) إلى البحث في (الحسن والقبح الذاتي في الأفعال). فأدى بحث الحسن والقبح بدوره إلى البحث في العقل والمستقلات العقلية، وهذه الأمور أدت بأجمعها إلى البحث في (الحكمة) أي أن لذات الباري تعالى غاية وغرضا حكيماً[2]، وبالتدريج أدّى البحث إلى التوحيد في الأفعال، ومن ثمَّ إلى التوحيد في الصفات، وهو ما سنقوم بتوضيحه فيما بعد.

وفي الأزمنة اللاحقة توسعت رقعة البحوث الكلامية وامتدت إلى الكثير من المسائل الفلسفية، من قبيل: البحث في الجواهر والأعراض،

---

٢ راجع مقدمة كتاب (العدل الإلهي) للمؤلف.

وتركب الجسم من أجزاء لا تتجزأ، ومسألة (الاخلأ) وغيرها، وذلك لأن المتكلمين وجدوا ضرورة في التطرق إلى هذه المسائل بوصفها مقدمة للمسائل المتعلقة بأصول الدين، على الخصوص ما يرتبط منها بالمبدأ والمعاد. ومن هنا دخل في علم الكلام كثير من المسائل الفلسفية.

وهناك بين الفلسفة والكلام مشتركات كثيرة، فلو تصفح شخص الكتب الكلامية ـ على الخصوص ما ألف منها في القرن السابع فما بعد ـ لوجد أنّ أكثر المسائل الكلامية هي تلك التي ذكرها الفلاسفة ـ على الخصوص المسلمون منهم - في كتبهم.

وقد كان لكل من الفلسفة الإسلامية، والكلام تأثيرات كبيرة على بعضهما، فقد عرض علم الكلام مسائل جديدة أجبر الفلسفة على التعرض لها، كما أدت الفلسفة أيضا إلى اتساع رقعة الكلام، بمعنى أن المتكلمين لمسوا حاجة ملحة في استعراض المسائل الفلسفية في علم الكلام، وربما وفقنا إلى ذكر نماذج لكلا هذين التأثيرين في الدروس المقبلة.

## الكلام العقلي والكلام النقلي

إن علم الكلام برغم كونه علما استدلاليا وقياسيا، إلا أنه بالنسبة إلى المقدمات والمبادئ التي يستخدمها في استدلاله يشتمل على قسمين عقلي ونقلي.

أما القسم العقلي من الكلام فعبارة عن المسائل التي تؤخذ مقدماتها من العقل فقط، فلا يستند فيها إلى الأدلة النقلية إلا لكونها

إرشاداً وتأييداً لما يحكم به العقل، من قبيل المسائل المتعلقة بالتوحيد والنبوة وبعض مسائل المعاد، ففي هذه المسائل لا يكفي الاستناد إلى النقل (الكتاب والسنة)، وإنما لا بد من الاستعانة بالعقل فقط.

وأما القسم النقلي من الكلام فهو مسائل برغم كونها من أصول الدين التي لا بد من الإيمان والاعتقاد بها، ولكن لأجل تفرعها على النبوة - فهي ليست مقدمة عليها ولا عينها - يكفي إثباتها عن طريق الوحي الإلهي أو السنة النبوية القطعية، كالمسائل المتعلقة بالإمامة (وهذا طبعاً بالنسبة إلى الشيعة)، وأكثر المسائل التي تتعلق بالمعاد.

# أسئلة الدرس الأول

## ضع صح أو خطأ في ما يلي:

| | صح | خطأ |
|---|---|---|
| 1 - العدالة والتقوى والحكمة من قسم الأخلاق. | | |
| 2 - قسم العقائد يبحث في علم الكلام. | | |
| 3 - يؤمن القدرية بالجبر. | | |
| 4 - بدأت البحوث الاستدلالية في الإسلام مع نزول القرآن الكريم. | | |
| 5 - نشأ علم الكلام من خارج العالم الإسلامي. | | |
| 6 - دخل في علم الكلام الكثير من المسائل الفلسفية. | | |
| 7 - يتضمن مبحث الجبر والاختيار مبحث القضاء والقدر. | | |
| 8 - يعتمد علم الكلام على الأمور النقلية فقط. | | |
| 9 - مبحث الحسن والقبح يرتبط بمسألة العدل الإلهي. | | |
| 10 - أثر كل من الكلام والفلسفة على بعضهما. | | |

## أجب على الأسئلة التالية:

1 - اشرح أقسام التعاليم الإسلامية الثلاثة.

..................................................................................................

..................................................................................................

2 - تحدث عن نشأة علم الكلام الإسلامي.

..............................................................................................................................................................................

..............................................................................................................................................................................

3 - أذكر الخلاف حول مسألة الجبر والاختيار.

..............................................................................................................................................................................

..............................................................................................................................................................................

الدرس 2

# تعريف علم الكلام وموضوعه

يكفي في تعريف عليم الكلام أن نقول: (علم يبحث في أصول الدين الإسلامي)، ويتوخى بيان ما هو داخل في أصول الدين ما هو خارج منها، ويتعرض إلى بيان الأدلة التي يمكن من خلالها إثبات هذه الأصول، ويتصدى للإجابة عن الشبهات والشكوك التي تثار ضد هذه الأصول.

هناك بحث في كتب المنطق والفلسفة حول ضرورة أن يكون لكل علم موضوع يخصه، ويرى أن التمايز بين مسائل العلوم المختلفة إنما يكون بالموضوعات، هذا صحيح بالنسبة إلى العلوم التي تكون بين مسائلها وحدة واقعية، ولكن لا مانع من أن تكون لعلم وحدة اعتبارية بين مسائله وتكون موضوعاته متعددة ومتباينة، إلا أنها تهدف إلى غرض واحد يكون هو منشأ تلك الوحدة الاعتبارية بين مسائله.

وعلم الكلام من هذا القبيل، فإن الوحدة بين مسائله ليست وحدة ذاتية ونوعيه، بل هي وحدة اعتبارية، وعليه فلا ضرورة للبحث عن موضوع واحد لعلم الكلام.

إن العلوم التي تكون بين مسائلها وحدة ذاتية، لا يمكن أن يحصل تداخل بينها، بأن يكون بينها اشتراك في المسائل، إلا أن العلوم التي تكون الوحدة بين مسائلها اعتبارية يمكن أن يحصل تداخل بينها وبين

العلوم الأخرى، وهذا هو سر تداخل مسائل الفلسفة والكلام، أو مسائل علم النفس والكلام، أو المسائل الاجتماعية والكلام.

وقد حاول بعض العلماء أن يبرز موضوعاً وتعريفاً خاصاً لعلم الكلام، نظير موضوع وتعريف العلوم الفلسفية، فذكرت نظريات مختلفة بهذا الصدد إلا أنها محاولات خاطئة، لما تقدم من أن الموضوع الواحد إنما يكون بالنسبة إلى العلوم التي بين مسائلها وحدة ذاتية دون التي بين مسائلها وحدة اعتبارية.

## التسمية

هناك بحث في سبب تسمية هذا العلم بـ (علم الكلام)، وفي أي زمن أُطلقت هذه التسمية.

فقال بعض: إنما سمي هذا العلم بـ (الكلام) لأنه يرفع من مستوى صاحبه في التكلم والاستدلال.

وقال بعض: إن السبب في ذلك أن علماء هذا الفن قد جرى ديدنهم على تصدير كتبهم بتعابير من قبيل (الكلام في كذا) و(الكلام في كذا).

وقال بعض: إن هذه التسمية إنما نشأت حينما احتدم النقاش بين المسلمين حول قدم (كلام الله) أو حدوثه، الأمر الذي أسفر عن وقوع كثير من القتلى، حتى أطلق على تلك الحقبة الزمنية بـ (أيام المحنة).

## المذهب والفرق الكلامية

إن المسلمين كما انقسموا من الناحية الفقهية وفروع الدين إلى مذاهب مختلفة، منها: الجعفري والزيدي والحنفي والشافعي والمالكي

والحنبلي، وصار لكل فرقة من هذه الفرق فقه يخصها، فقد انقسموا أيضا من ناحية المسائل الاعتقادية وأصول الدين إلى فِرَق ومذاهب وصار لكل فرقة مبانيها وأصولها الاعتقادية، وأهم المذاهب الكلامية هي: الشيعة والمعتزلة والأشاعرة والمرجئة.

وربما تساءل بعض وأبدى أسفه على تمزّق المسلمين إلى كل هذه الفِرَق في المسائل الفقهية والكلامية، ولم يحافظوا على تماسكهم ووحدتهم، مما يؤدي إلى عدم انسجامهم وتعاضدهم.

وهذا التساؤل والتأسف وإن كان في محله، ولكن لا بد من الإشارة معه إلى أمرين:

**الأول:** إن اختلاف المسلمين في المسائل الكلامية والفقهية ليس بالمستوى الذي يزعزع وحدتهم العقائدية العملية، وذلك لأن مشتركاتهم العقائدية والعملية من الكثرة بحيث لا تباريها موارد الخلاف بينهم.

**الثاني:** إن الاختلاف الفكري والنظري في المجتمعات - برغم اتحادها فكرياً - أمر لا محيص عنه، بل قد تكون هذه الاختلافات مفيدة أيضاً إذا كان منشؤها الأساليب الاستنباطية، دون الأغراض الشخصية؛ لأنها ستؤدي إلى تحريك الفكر والتحقيق والبحث والتقدم. دونما إذا كانت ناشئة عن العصبيات والأهواء التي لا تقوم على أسس منطقية، والتي تؤدي بأصحابها إلى السخرية بمناوئيهم واتهامهم والافتراء عليهم، بدلاً من المبادرة إلى إصلاح أساليبهم الفكرية.

وفي المذهب الشيعي يجب على الناس تقليد المجتهد الحيّ، كما يتعين على الفقيه أنّ يجتهد بشكل مستقل ولا يكتفي بما توصل إليه أسلافه،

وهذا الاجتهاد والاستقلال في التفكير أدى بدوره إلى ظهور مجموعة من الاختلاف في الآراء والأنظار، إلا أن هذا الاختلاف هو السر في تحرك الفقه الشيعي وحيويته.

إذن ليس كل اختلاف مرفوضاً، بل المرفوض هو الاختلاف الناشئ عن سوء النوايا، والذي يؤدي بالمسلمين إلى الانحراف عن طريقتهم الأساسية، كما في مسألة الإمامة والقيادة دون المسائل الفرعية.

إلا أنّ بحث تاريخ المسلمين الفكري، ومعرفة الاختلافات التي نشأت من سوء النوايا، وتمييزها عما نشأ عن طبيعة التفكير لدى المسلمين، وهل يجب عدّ كل المسائل الكلامية من الأصول وجميع المسائل الفقهية من الفروع، أو من الممكن أن لا تكون لمسألة كلامية أصالة، في حين تحظى المسألة الفقهية بأصالة، هذه البحوث الخارجة عن مستوى هذه الدروس.

ويجدر بنا قبل الخوض في المذاهب الكلامية أن نتعرض لتيار ظهر في العالم الإسلامي عارض الكلام والبحوث العقلية في المسائل الأصولية من الأساس ورآه (بدعة) محرّمة، وعرف أنصار هذا التيار بـ(أهل الحديث) وكان على رأسهم (أحمد بن حنبل) زعيم الأحناف الذين خالفوا الكلام بشكل كامل ـ أعم من الكلام المعتزلي أو الأشعري فضلاً عن الشيعي ـ وبذلك خالفوا المنطق والفلسفة بالأولوية، وقد أفتى ابن تيمية ـ وهو من الشخصيات البارزة بين أبناء العامة ـ بحرمة الكلام والمنطق، ولجلال الدين السيوطي وهو من أئمة أهل الحديث كتاب بعنوان (صون المنطق والكلام عن المنطق والكلام). كما لم يُجز مالك

بن أنس ـ وهو من فقهاء السنة ـ أي بحث حول المسائل الاعتقادية، وقد أوضحنا موقف الشيعة في هذا المجال في مقدمة الجزء الخامس من كتاب (أسس الفلسفة والمذهب الواقعي).

إنّ أهم المذاهب الكلامية ـ كما تقدمت الإشارة إلى ذلك ـ عبارة عن: الشيعة والمعتزلة والأشاعرة والمرجئة، وقد عَدّ بعض الخوارج والباطنية أي المذهب الإسماعيلي من المذاهب الكلامية [3].

إلا أن الصحيح هو عدم إمكان عدهما من المذاهب الكلامية.

أمّا الخوارج فلأنهم وإن أوجدوا بعض المعتقدات الخاصة في أصول الدين، وربما كانوا أوّل من صدرت عنهم بعض المعتقدات حول الإمامة، وتكفير الفاسق، وتكفير من أنكر عقائدهم، إلا أنهم لم يؤسسوا لمعتقداتهم نظاماً فكرياً، مضافاً إلى أنّ انحرافهم الفكري قد بلغ حداً يصعب معه عدّهم في زمرة المسلمين، ومما يهون الخطب أنّ الخوارج قد انقرضوا ولم يبق منهم إلا فرقة (الأباضية) التي لا زالت تحظى ببعض المؤيدين، وهي من أكثر فرق الخوارج اعتدالاً، وهذا الاعتدال هو سرّ بقائهم إلى يومنا هذا.

وأما الباطنية فقد تصرفوا بالأفكار الإسلامية على أساس من التفسير الباطني، فقلبوا الإسلام ظهراً لبطن، حتى أخذ المسلمون لا يعدونهم جزءاً من الفِرَق الإسلامية، فقد مضى على تأسيس (دار التقريب بين المذاهب الإسلامية) في القاهرة حوالي ثلاثين عاماً، وكان لجميع المذاهب الإسلامية من الشيعة الأمامية والزيدية والحنفية

٣ مذاهب الإسلاميين، لعبد الرحمن بدوي، الجزء الأول، ص34.

والمالكية والشافعية والحنبلية ممثل عنها، وقد بذل الإسماعيليون جهوداً كبيرة لإدخال ممثل عنهم في هذه الدار، إلا أنهم واجهوا رفضاً من سائر المسلمين.

والباطنية برغم انحرافهم الفكري، إلا أنهم يتمتعون - خلافاً للخوارج - بنظام ومدرسة فلسفية وكلامية خاصة بهم، وقد ظهر فيهم مفكرون بارزون أودعوا المكتبة الإسلامية تراثاً فكرياً لا يستهان به، وقد بل المستشرقون في الآونة الأخيرة اهتماماً كبيراً بأفكار الباطنية وتراثهم.

ويمكننا أنّ نذكر من بين الشخصيات الإسماعيلية الأسماء الآتية:

- (ناصر خسرو العلوي) الشاعر الإيراني الشهير (ت: 814 هـ) ومن كتبه المعروفة (جامع الحكمين) و(وجه الدين) و(خوان الإخوان).

- و(أبو حاتم الرازي، ت: 332 هـ)، وهو صاحب كتاب (أعلام النبوة).

- و(أبو يعقوب السجستاني)، المتوفى حوالي النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة، وهو صاحب كتاب (كشف المحجوب) الذي ظهرت ترجمته الفارسية مؤخراً.

- و(حميد الدين الكرماني) تلميذ أبي يعقوب السجستاني المتقدم ذكره، وقد ألف كتباً كثيرة حول المذهب الإسماعيلي.

- و(أبو حنيفة النعمان بن ثابت) المعروف بـ(القاضي نعمان) والذي يُسمى بـ(أبي حنيفة الشيعي الإسماعيلي)، وهو ضليع في الفقه والحديث، وله كتاب (دعائم الإسلام) المعروف، والذي تمّ طبعه طباعة حجريه قبل عدة سنوات في طهران.

## أسئلة الدرس الثاني

### ضع صح أو خطأ في ما يلي:

| صح | خطأ | |
|---|---|---|
| | | 1 - من مهام علم الكلام الإجابة على الشبهات حول أصول الدين. |
| | | 2 - يجب أن يكون لكل علم موضوع واحد. |
| | | 3 - بين المسلمين مشتركات عقائدية تتجاوز موارد الخلاف. |
| | | 4 - يرفض الإسلام كل اختلاف في أفكار المسلمين. |
| | | 5 - يرفض أهل الحديث البحوث العقلية. |
| | | 6 - يعتبر المذهب الإسماعيلي من المذاهب الكلامية. |
| | | 7 - يؤمن الخوارج بكفر الفاسق. |
| | | 8 - كفّر الخوارج كل من أنكر معتقداتهم. |
| | | 9 - فرقة الأباضية تعد من فرق الباطنية. |
| | | 10 - القاضي نعمان يعد من علماء الإسماعيلية. |

### أجب على الأسئلة التالية:

1 - ألا يؤدي انقسام المسلمين إلى عدة فرق إلى تباعدهم عقائدياً؟

........................................................................

........................................................................

2 - أعرض لبعض آراء الباطنية.

........................................................................

..........................................................................................................................................

3 - من هو السبب في تسمية علم الكلام باسمه؟

..........................................................................................................................................

..........................................................................................................................................

3
الدرس

# المعتزلة (١)

نبدأ بحثنا ـ لأسباب سنذكرها فيما بعد ـ المعتزلة

لقد ظهر الاعتزال في أواخر القرن الأوّل أو بدايات القرن الثاني للهجرة، كما أنّ علم الكلام كسائر العلوم الأخرى قد تكامل بالتدريج.

وسنشرع أولاً في ذكر فهرسة لأصول عقائد المعتزلة، والمشخصات الأساسية لمذهب الاعتزال، ثمَّ نتعرض إلى ذكر رجال المعتزلة والإشارة إلى تاريخهم. لنبين بعد ذلك التغيرات التي طرأت على مسيرة الاعتزال عقائدياً.

إن مسائل المعتزلة كثيرة ولا تنحصر بالأمور الدينية المحضة ـ التي يرى المعتزلة وجوب الاعتقاد بها ـ فإنها تحتوي على مجموعة من المسائل الطبيعية والاجتماعية والإنسانية والفلسفية المتعلقة بالمسائل الإيمانية بشكل غير مباشر، ويرى المعتزلة أن التحقيق في المسائل الإيمانية لا يتأتى إلا من خلال التحقيق في هذه الأمور.

إن الأصول الاعتزالية التي يذكرها المعتزلة أنفسهم خمسة:

1- **التوحيد**، بمعنى عدم تكثُّر الذات والصفات.

2- **العدل**، بمعنى أنّ الله سبحانه عادل وليس ظالماً.

3- **الوعد والوعيد**، بمعنى أنّ الله وقد وعد عباده بمكافأتهم عند الإطاعة، وأنذرهم بالعقاب عند المعصية، وكما أنّ وعد المطيعين

بالمكافأة لا يتخلف، فإن وعيد المجرمين بالعقاب لا يتخلف أيضاً، وعليه فلا غفران إلا في صورة التوبة.

4- **المنزلة بين المنزلتين**، بمعنى أنّ الفاسق (وهو مرتكب الكبيرة، كشارب الخمر والزاني والكذاب وأمثال ذلك) لا هو مؤمن ولا هو كافر، فالفسق حالة وسطية بين الكفر والإيمان.

5- **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**، بمعنى أنّ معرفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا تنحصر ـ عند المعتزلة ـ بالشارع، إذ يمكن للعقل أنّ يستقل في إدراك بعض مما هو معروف أو منكر، كما أنهم لا يشترطون حضور الإمام في وجوب هذه الفريضة على عموم المسلمين، نعم تختص بعض مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بإمام المسلمين، من قبيل: إمامة الحدود الشرعية، وحفظ الثغور الإسلامية، وسائر وظائف الدولة الإسلامية.

وقد صنّف المتكلمون من المعتزلة كتباً مستقلة في هذه الأصول الخمسة، من قبيل كتاب (الأصول الخمسة) للقاضي عبد الجبار المعتزلي المعاصر للصاحب بن عباد والسيد المرتضى علم الهدى.

وكما يلاحظ، فإن الذي يمكن عدّه من المسائل الاعتقادية هو التوحيد والعدل فقط، وأمّا الأصول الثلاثة الأخرى فإنها تحدد هوية الاعتزال، بل أنّ أصل العدل أيضاً ـ وإن كان من ضرورات المعتقد والمسلمات القرآنية ـ إنما أُدخل في هذه الأصول الخمسة لكي يحدد الهوية الاعتزالية، وإلا فإنّ أصل العلم والقدرة (وإنّ الله سبحانه عالم وقادر) من ضرورات الإسلام والمعتقد أيضاً، ولكنها ليست من

الأصول الاعتقادية.

وقد عدَّ الشيعةُ (العدلَ) واحداً من الأصول الاعتقادية الخمسة أيضاً، وقد يفرض هذا التساؤل نفسه، وهو: ما هي الخصوصية التي أدخلت العدل في أصول المعتقد، والحال أنّ العدل كسائر الصفات التي يجب الإيمان والاعتقاد بها، فكما أنّ الله عادل فهو عالم وقدير وحيّ ومدرك وسميع وبصير؟

وجوابه: إنّ (العدل) لا يمتاز عن سائر الصفات، إلا أن المتكلمين من الشيعة وكذلك المعتزلة إنّما أدخلوه في الأصول كي يمتازوا بذلك عن الأشاعرة ـ وهم غالبية أهل السنة ـ الذين ينكرون أصل العدل، ولكنهم لا ينكرون العلم والحياة والإرادة و....

وهذه الأصول الخمسة المتقدمة تشكل الخطوط العريضة لمذهب المعتزلة الكلامي، وإلا فإنّ ما يعتقد به المعتزلة لا ينحصر بما تقدم من الأصول الخمسة، وقد ذكروا عقائد خاصة بهم في الكثير من مسائل الإلهيات والطبيعيات والاجتماعيات والإنسانيات مما لا يتسع المجال لذكرها.

## التوحيد

وللتوحيد مراتب وأقسام، وهي كالآتي: توحيد الذات، وتوحيد الصفات، والتوحيد في الأفعال، والتوحيد في العبادة.

أمّا توحيد الذات فيعني: أن الله تعالى واحد ليس له مثيل، وكل ما سواه مخلوق ودونه في مراتب الكمال، بل لا يمكن النسبة بينهما،

وإنّ قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}[4] و{لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ}[5] بيان للتوحيد الذاتي.

وأمّا التوحيد في الصافات فيعني: أنّ صفات الله تعالى، من قبيل: العلم والقدرة والحياة والإرادة والإدراك والسميعية والبصيرية، ليست زائدة على الذات وليست خارجة عنها، بل هي عينها. وبعبارة أخرى: إنّ ذات الباري تعالى بشكل ينطبق عليها جميع هذه الصفات، وإنّ آثار هذه الصفات مترتبة عليها.

وأمّا التوحيد الأفعالي، فيعني: أن جميع الأفعال ـ وليست الذوات فقط ـ حتى أفعال الإنسان تصدر بإرادة الله ومشيئته.

وأما التوحيد في العبادة، فيعني: انه لا موجود يستحق العبادة سوى الله تعالى، وإنّ عبادة ما سوى الله تساوي الشرك والخروج عن دائرة التوحيد الإسلامي.

وقد يبدو أن التوحيد في العبادة ـ من بعض الوجوه ـ يختلف عن سائر أقسام التوحيد الأخرى. وذلك لأن الأقسام الثلاثة الأولى تتعلق بذات الله تعالى، بينما يتعلق القسم الأخير بالعباد، فإن توحيد الذات وتنزيهها عن الشريك والمثيل، وتوحيدها في الصفات والفاعلية من شؤون الباري تعالى، بينما التوحيد في العبادة من شؤون الناس العبادية، إلا أنّ الحقيقة هي أنّ التوحيد في العبادة من شؤون الله أيضاً، وذلك لأن التوحيد في العبادة يعني أن ليس هناك من هو جدير بالعبادة سوى

---

٤ سورة الشورى، الآية 11.

٥ سورة الإخلاص، الآية 4.

الله، فهو المعبود الوحيد.

هذا، وإن كلمة (لا إله إلا الله) تحتوي على جميع مراتب التوحيد، وإن كان المفهوم منها ابتداءً هو التوحيد في العبادة.

إنّ التوحيد الذاتي والتوحيد في العبادة من الأصول الاعتقادية الأولى في الإسلام، فلو أن شخصاً لم يعتقد بواحد منها فهو خارج عن الإسلام بإجماع المسلمين.

وفي الآونة الأخيرة ظهر (الوهابيون) أتباع محمد بن عبد الوهاب المتأثر بأفكار ابن تيمية الحنبلي الشامي، وادعوا أنّ بعض المعتقدات لدى المسلمين من قبيل: الشفاعة والتوسل بالأنبياء والأولياء تخالف أصل التوحيد في العبادة، إلا أنّ سائر المسلمين لا يرون ذلك منافياً للتوحيد في العبادة، إذن ليس الخلاف بين الوهابية وسائر المسلمين في أن الله تعالى هو الذي يستحق العبادة دون غيره وإن كان نبياً أو ولياً، وإنما الاختلاف قائم في أن الشفاعة والتوسل عبادة أم لا؟ إذن النزاع بينهما صغروي وليس كبروياً، وقد ردّ العلماء المسلمون نظرية الوهابية، بأدلة تفصيلية.

وقد خالفت المعتزلة الأشاعرة في التوحيد في الصفات، فبينما أنكر الأشاعرة اتحاد الصفات مع الذات، فقد آمن به المعتزلة، كما اختلفت هاتان الفرقتان في التوحيد في الأفعال، فأنكرته المعتزلة وآمنت به الأشاعرة.

وقد رأى المعتزلة أنفسهم (أهل التوحيد)، فجعلوا التوحيد على قائمة أصولهم الخمسة، إلا أنهم أرادوا ذلك التوحيد في الصفات، دون

التوحيد في الذات أو العبادة، إذ لا خلاف في هذين القسمين من أقسام التوحيد، ودون التوحيد في الأفعال، وذلك لعدم إيمان المعتزلة بالتوحيد الأفعالي، مضافاً إلى أنهم بحثوه في الأصل الثاني من أصولهم الخمسة تحت عنوان (العدل).

وبذلك يكون المعتزلة والأشاعرة على طرفي نقيض بالنسبة إلى التوحيد الصفاتي والأفعالي، فالمعتزلة يؤمنون بالتوحيد الصفاتي دون الأشاعرة، كما أنّ الأشاعرة يؤمنون بالتوحيد الأفعالي دون المعتزلة، ولكل منهما أدلة يقيمها على مدعاه.

وأما رأي الشيعة حول هذين القسمين فهو ما سنبينه في الفصل الذي سنفرده للحديث عن الشيعة.

## أسئلة الدرس الثالث

### ضع صح أو خطأ في ما يلي:

| | صح | خطأ |
|---|---|---|
| 1 - ظهر مذهب المعتزلة في القرن الثالث للهجرة. | | |
| 2 - تحتوي عقائد المعتزلة مسائل طبيعية واجتماعية. | | |
| 3 - الوعيد يعني عقاب العاصين. | | |
| 4 - هناك حالة وسطية بين الإيمان والكفر. | | |
| 5 - ينكر الأشاعرة أصل العدل. | | |
| 6 - توحيد الذات يعني أن صفات الله عين ذاته. | | |
| 7 - يختص التوحيد في العبادة بالناس. | | |
| 8 - لا يؤمن الأشاعرة بالتوحيد الصفاتي. | | |
| 9 - يؤمن المعتزلة بالتوحيد الأفعالي. | | |
| 10 - الشرع وحده يحدد موارد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. | | |

### أجب على الأسئلة التالية:

1 - عدد أصول عقائد المعتزلة واشرح اثنين منها.

.................................................................................................................................

.................................................................................................................................

2 - لماذا اختيرت صفة العدل كأصل دون بقية الصفات الإلهية؟

.................................................................................................................................

.......................................................................................................................

3 - عدد مراتب التوحيد واشرح اثنين منها.

.......................................................................................................................

.......................................................................................................................

4
الدرس

# المعتزلة (٢)

## العدل

أشرنا في الدرس الماضي إلى أصول المعتزلة الخمسة إجمالاً، وقمنا بتوضيح أصل (التوحيد) منها، والآن جاء دور الأصل الثاني منها وهو أصل (العدل).

وطبعاً ليس هناك من الفرق الإسلامية من ينكر (العدل) بوصفه صفة من صفات الله، فليس هناك من يصرح بأن الله سبحانه وتعالى ليس عادلاً، وإنما الاختلاف بين المعتزلة والأشاعرة وقع في تفسير العدل، إذ فسرته الأشاعرة بشكل يراه المعتزلة مساوياً لإنكار العدل، وإلا فإن الأشاعرة يرفضون نسبة إنكار العدل إليهم.

إن عقيدة المعتزلة بشأن (العدل) هي أن هناك من الأفعال ما هو عدل في ذاته، ومنها ما هو ظلم في ذاته، والأول من قبيل مكافأة المطيع ومعاقبة المسيء، ومعنى أن (الله عادل) أنه يكافئ المطيع ويعاقب المسيء، ويستحيل عليه أن يقوم بخلاف ذلك، لأن مكافأة المسيء ومعاقبة المطيع قبيحة في ذاتها ومن المستحيل على الله أن يرتكبها وهكذا إجبار العبد على المعصية، أو سلب القدرة عنه بأنه يخلق الله المعصية يجريها على يده، ثم يعاقبه عليها، فهذا من موارد الظلم التي

يُنزّه الله عنها.

إلا أن الأشاعرة لا يرون هناك ما هو عدل أو ظلم في ذاته، ويرون أن ما يقوم به الله هو العدل بعينه. فأنه لو عاقب المطيع أو كافأ المسيء، كان ذلك منه محض العدل، وهكذا إذا سلب العبد قدرته وأجرى الذنب على يده ثم عاقبه عليه، فإن هذا في حد ذاته ليس ظلماً، فعلى فرض صدوره منه فهو عين العدل (كلٌّ شيء من الجميل جميل).

ولأجل ذهاب المعتزلة إلى القول بالعدل فقد أنكروا (التوحيد الأفعالي)، إذ لا ينسجم مع (العدل)، وذلك لأن لازم (التوحيد الأفعالي) أن لا يكون الإنسان خالقاً لأفعاله، وأن خالقها هو الله، وبما إننا نعلم أن الله سوف يكافئ الإنسان أو يعاقبه يوم القيامة، فإذا كان الله هو خالق الأفعال فإنه سيجازي الناس على أمور لم يفعلوها، وهذا ظلم ينافي العدل الإلهي.

ومن هنا ذهب المعتزلة إلى اختيار الإنسان وإرادته ودافعوا عن هذه الرؤية دفاعاً شديداً، خلافاً للأشاعرة الذين أنكروا إرادة الإنسان وحريته.

وبعد تأسيس المعتزلة أصل العدل - بمعنى أنّ بعض الأفعال عدل أو ظلم في ذاته، وأنّ العقل يحكم بحسن العدل ووجوب امتثاله، وقبح الظلم ووجوب اجتنابه - أسسوا أصلا آخر أوسع منه، وهو أصل (الحسن والقبح الذاتي في الأفعال)، فإن ما كان من قبيل الصدق والأمانة والعفة والتقوى، فهو حسن لذاته، وما كان من قبيل الكذب والخيانة والفحشاء فهو قبيح لذاته، وبذلك تكون الأفعال في ذاتها وقبل

أن يحكم الله بشأنها متصفة بالحسن والقبح.

ومن هذا الطريق توصلوا إلى أصل آخر وهو استقلال العقل في إدراك حسن الأشياء وقبحها، أي إن بإمكان العقل بقطع النظر عن الشارع أن يستقل في إدراك حسن الشيء أو قبحه، وهذا ما خالفه الأشاعرة أيضاً.

وبعد ذلك أدى البحث في الحسن والقبح الذاتي والعقلي إلى مسائل كثيرة أخرى، يتعلق بعضها بالإلهيات وبعضها بالإنسان، من قبيل: هل هناك غاية وراء خلق الله للأشياء والمخلوقات أو لا؟ قالت المعتزلة: إذا لم يكن وراء خلق الأشياء هدف وغاية كان ذلك قبيحاً ومحالاً عقلاً... وهل يمكن لله أنّ يكلف الإنسان بما لا يطاق؟ قال المعتزلة بقبح ذلك واستحالته أيضاً... وهل للمؤمن قدرة على الكفر؟ وهل للكافر قدرة على الإيمان؟ أجاب المعتزلة على ذلك بالإيجاب، و إلا قبح من الله أن يكافئ المؤمن أو يعاقب الكافر في هذه الصورة، بينما خالف الأشاعرة في ذلك كله ووقفوا بوجه المعتزلة.

## الوعد والوعيد

الوعد يعني البشارة بإعطاء الأجر، والوعيد يعني التهديد بالعقاب، وقالت المعتزلة: بما أنّ الله تعالى لا يخلف الوعد، وفقاً لقوله تعالى: {إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ}[6] -وهو ما أجمع عليه المسلمون- فإنه لا يخلف الوعيد أيضاً وعليه فإن جميع ما أنذر به الله الفساق والفجار وما للظالم

٦ سورة الرعد، الآية 31.

والكذاب وشارب الخمر من العذاب والعقاب، فإنه واقع، ويستحيل تخلفه ما لم تصدر التوبة من العبد في دار الدنيا، و إلا لزم منه خلف الوعيد وهو قبيح كخلف الوعد، وبذلك تكون عقيدة المعتزلة في الوعد والوعيد قائمة على الحسن والقبح العقليين، ومرتبطة بمسألة الغفران.

## المنزلة بين المنزلتين

نشأت عقيدة المعتزلة بالمنزلة بين المنزلتين تبعاً لرأيين متضادين في الإسلام حول كفر الفاسق وإيمانه، وأول من صرح بذلك هم (الخوارج) إذ ذهبوا إلى أن ارتكاب الكبيرة ينافي الإيمان ويساوق الكفر، وعليه يكون مرتكب الكبيرة كافراً.

وقد ظهر الخوارج - كما نعلم - في خلافة أمير المؤمنين(ع) وفي واقعة صفين، على أثر حادثة التحكيم، في سنة 37 هـ.

وكما هو مسطور في نهج البلاغة فإن أمير المؤمنين(ع) ناقشهم في هذه المسألة وأبطل رأيهم بأدلة متقنة.

وقد أستمر الخوارج في الاعتراض على الخلفاء، فعُرفوا بـ(أهل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) و(أهل التكفير والتفسيق). وبما أن أغلب الخلفاء كانوا يرتكبون الكبائر، فقد وقف الخوارج دائماً على طرف نقيض من الحكام وحكموا بكفرهم.

وفي قبال الخوارج ظهرت فرقة - أو أوجدتها السياسة - عرفت بـ(المرجئة) فوقفت في النقطة المقابلة للخوارج، إذ رأت أن المهم في الإيمان هو مجرد الاعتقاد القلبي، فلا تأثير لارتكاب المعاصي على

إيمان الشخص، فالإيمان القلبي عندهم هو كفارة السيئات، فمهما كان الذنب عظيماً فإنه لا يضر بالإيمان، وبذلك يكون مرتكب الكبيرة مؤمناً، فعادت هذه العقيدة بالنفع لصالح الجهاز الحاكم، لأنها تؤدي إلى عدم استياء الناس من فسق الخليفة وفجوره، واعتباره - برغم ما له من المساوئ - من أهل الجنة. وقد صرح المرجئة بوجوب إطاعة الخليفة وصحة الصلاة خلفه مهما بلغ فجوره، الأمر الذي دعا خلفاء الجور إلى دعم المرجئة.

ومن بين هاتين العقيدتين خرج المعتزلة بعقيدة وسطى، فقالوا: أن مرتكب الكبيرة لا هو مؤمن ولا هو كافر، بل هو برزخ بينهما، وأطلق المعتزلة على هذه العقيدة تسمية (المنزلة بين المنزلتين).

وقيل: إن أول من صرّح بهذه العقيدة (واصل بن عطاء) تلميذ الحسن البصري، إذ دخل على أستاذه في مجلسه، فسأله عن خلاف الخوارج والمرجئة في هذه المسألة، وقبل أنّ يجيب الحسن البصري على ذلك بادره واصل بقوله (أرى أن صاحب الكبيرة فاسق وليس كافراً)، ثم خرج - وقيل: إن الحسن البصري هو الذي أخرجه - واعتزل في مجلسه وبدأ بنشر عقيدته وآرائه، فالتحق به تلميذه وأخو زوجته عمرو بن عبيد، فقال الحسن البصري: (اعتزل عنّا)، وعلى قول آخر: قال الناس: (اعتزلا قول الأمّة).

## الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الضروريات التي أجمع

عليها المسلمون أيضاً، وإنّما وقع الخلاف في حدودها وشروطها، فالخوارج مثلاً لا يشترطون أي شرط في ذلك، فيجب عندهم أداء هذه الوظيفة وإقامتها ولو بالسيف، بينما اشترط آخرون احتمال التأثير أو عدم ترتب مفسدة أهم، وهناك من اشترط شروطاً أخرى لا تتجاوز القلب واللسان منهم أحمد بن حنبل، ولم يجيزوا سفك الدماء في مواجهة المنكر وإقامة المعروف.

أمّا المعتزلة فقد ارتضوا شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلا أنهم لم يحصروه بالقلب واللسان، ورأوا ضرورة تجهيز المسلمين وإعدادهم للثورة تحسباً لشيوع المنكر أو ممارسة الدولة الظلم.

## أسئلة الدرس الرابع

### ضع صح أو خطأ في ما يلي:

| | صح | خطأ |
|---|---|---|
| 1 - اختلف المعتزلة والأشاعرة في تفسير العدل. | | |
| 2 - إن الله عادل يعني أنه يكافئ المطيع ويعاقب المسيء. | | |
| 3 - إن الله يسلب القدرة من العبد فيعصي (حسب المعتزلة). | | |
| 4 - يؤمن الأشاعرة بأن ما يقوم به الله هو عدل حتى لو عاقب المحسن. | | |
| 5 - إيمان المعتزلة بالعدل جعلهم ينكرون التوحيد الأفعالي. | | |
| 6 - للمؤمن القدرة على الكفر وللكافر القدرة على الإيمان. | | |
| 7 - لا يمكن لله إلا أن يدخل الكافر النار لأنه من وعيده. | | |
| 8 - يرى المعتزلة بضرورة الثورة على المنكر. | | |
| 9 - مؤسس المعتزلة هو الحسن البصري. | | |
| 10 - أجمع كل المسلمين على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. | | |

### أجب على الأسئلة التالية:

1 - اشرح عقيدة المعتزلة حول العدل.

..............................................................................................

..............................................................................................

2 - اشرح عقيدة المعتزلة حول الحسن والقبح العقليين.

..............................................................................................

........................................................................................................................................

3 - ماذا يعني الوعد والوعيد؟

........................................................................................................................................

........................................................................................................................................

الدرس 5

# المعتزلة (٢)

## أفكار المعتزلة وآراؤهم

ما تقدم من الدروس كان يدور حول أصول المعتزلة، ولكن تقدمت الإشارة إلى أنّ للمعتزلة مسائل كثيرة أخرى في الإلهيات والطبيعيات والاجتماعيات والإنسان، أما الإلهيات فيتعلق بعضها بالأمور العامة، وبعضها بالإلهيات بالمعنى الأخص، إلا أن مراد المعتزلة الأساسي - كسائر المتكلمين - هو الإلهيات بالمعنى الأخص، التي تتحدث في دائرة أصول الدين، وإنما يذكرون مسائل الأمور العامة من باب المقدمة، كما يبحثون الطبيعيات من باب المقدمة أيضاً، أي إنّ المتكلمين إنما يبحثون في الطبيعيات بوصفها طريقاً لإثبات أصل ديني أو حل إشكال، واليك فهرسة ببعض المسائل التي تحدث المعتزلة عنها، وسنبدأ بالإلهيات:

1- التوحيد في الصفات.

2- العدل.

3- حدوث كلام الله (الكلام صفة الفعل دون الذات).

4- تعليل أفعال الله بالأغراض (فكل فعل من أفعال الله له غرض وفائدة).

5- لا غفران إلا مع التوبة (أصل الوعد والوعيد).

6- لا قديم إلا الله (ولم يخالف في ذلك إلا الفلاسفة).

7- استحالة التكليف بغير المقدور.

8- أفعال الإنسان غير مخلوقة لله ولا تتعلق بها مشيئته.

9- العالم حادث (وقد خالف الفلاسفة في ذلك أيضاً).

10- استحالة رؤية الله في الدنيا والآخرة.

## الطبيعيات:

1- تركب الجسم من ذرّات غير قابلة للتجزئة.

2- الرائحة عبارة عن ذرّات منتشرة في الهواء.

3- الطعم ليس سوى الذرّات التي تؤثر على الذائقة.

4- الضوء عبارة عن ذرّات منتشرة في الفضاء.

5- عدم استحالة تداخل الأجسام في بعضها (وهو رأي منسوب لبعض المعتزلة).

6- عدم استحالة الطفرة (وهو منسوب لبعض المعتزلة أيضاً).

## مسائل الإنسان:

1- الإنسان حر ومختار وليس مجبوراً (وهي مسألة مرتبطة بخلق الأفعال والعدل الإلهي).

2- الاستطاعة (الإنسان قادر على فعل الشيء وتركه).

3- قدرة المؤمن على الكفر، والكافر على الإيمان.

4- الفاسق ليس مؤمناً وليس كافراً.

5- استقلال العقل بإدراك بعض المسائل (بلا توسط الشرع).

6- تقديم العقل عند التعارض بينه وبين الحديث.

7- إمكان تفسير القرآن بالعقل.

## المسائل الاجتماعية والسياسية:

1- وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولو بالسيف.

2- صحة إمامة الخلفاء الراشدين على ما هم عليه من الترتيب.

3- تفضيل الإمام علي(ع) على من سبقه من الخلفاء (وهو رأي بعض المعتزلة، فإنّ قدماء المعتزلة ـ سوى واصل بن عطاء ـ كانوا يرون أفضلية أبي بكر، إلا أنّ غالبية المتأخرين يفضلون أمير المؤمنين(ع)).

4- جواز نقد الصحابة ومناقشة أفعالهم.

5- دراسة سياسة عمر وسياسة الإمام علي(ع) والمقارنة بينهما.

هذه نماذج من المسائل التي تعرض لها المعتزلة، وهناك مسائل غيرها، اختلفوا فيها مع الأشاعرة والفلاسفة والشيعة والخوارج والمرجئة.

اقترن ظهور المعتزلة وارتفاع شأنهم بدخول الفلسفة اليونانية في العالم الإسلامي، إلا أنهم لم يستسلموا للفكر اليوناني بشكل مطلق، بل صنفوا كتباً في الرد على الفلسفة وأثبتوا آراءهم بشجاعة، وقد انتهى النزاع بين المتكلمين والفلاسفة لصالح الفريقين، فكل واحد منهما أدى إلى تقدم الآخر، وقد اقتربا في نهاية المطاف من بعضهما، حتى لم يبق بينهما سوى النزر اليسير من المسائل الخلافية، ولكن لا

يسعنا بيان هذا الطلب وما هي الخدمة التي قدمها الكلام للفلسفة أو الخدمة التي قدمتها الفلسفة للكلام، وما هي الفروق الأساسية بين الفلسفة والكلام.

## المسار التاريخي للاعتزال

بديهي أنّ هذه المسائل بأجمعها لم تكن وليدة ساعة أو من صُنع شخص واحد، وإنما ظهرت بالتدريج وعلى مرِّ السنين وعلى يد مختلف الأشخاص، مما أدى إلى توسيع رقعة علم الكلام.

ويبدو أنّ أقدم هذه المسائل، مسألة الجبر والاختيار، وطبعاً ذهب المعتزلة إلى الاختيار، علماً بأن مسألة الجبر والاختيار من المسائل التي تعرض لها القرآن الكريم وحث الناس على التدبر فيها، فهناك آيات صريحة في حرية الإنسان واختياره، وهناك آيات أخرى صريحة أيضاً في أنّ جميع الأمور بيد الله ومشيئته، وبذلك توهم بعض أنّ هناك عدم تناغم بين هاتين الطائفتين من الآيات، فذهب بعضهم إلى الجبر فأوَّلَ آيات الاختيار، وذهب آخر إلى الاختيار فأوَّل آيات المشيئة والإرادة (القضاء والقدر)، وطبعاً هناك مجموعة ثالثة لم تر أي تهافت بين هاتين الزائفتين من الآيات [7].

هذا وقد تكرر البحث في الجبر والاختيار في كلمات أمير المؤمنين(ع) كثيراً، وعليه يعود تاريخ هذه المسألة إلى بداية الإسلام، إلا إن تفرق المسلمين وانقسامهم إلى الجبري وغيره إنما حصل في النصف الثاني

٧ بحثنا هذا الموضوع بالتفصيل في كتاب الإنسان والمصير، (إنسان وسرنوشت) للمؤلف.

من القرن الأوّل للهجرة.

وقيل: إنّ أول من صدع بفكرة الاختيار هو غيلان الدمشقي ومعبد الجهني، إذ كان بنو أمية يرومون الترويج لفكرة الجبر لأغراض سياسية، فعمدوا - تحت غطاء مقولة (آمنا بالقدر خيره وشره) - إلى تبرير سياساتهم التعسفية والظالمة، وقمعوا كل فكرة تذهب إلى اختيار الإنسان وحريته، فقتلوا غيلان الدمشقي ومعبد الجهني، وقد أُطلق على أنصار الاختيار آنذاك تسمية (القدرية)[8].

وطبعاً إنّ مسألة (كفر الفاسق) نوقشت قبل مسألة الجبر والاختيار، فقد أثارها الخوارج في النصف الأول من القرن الهجري الأول في خلافة أمير المؤمنين(ع) إلا أنهم لم يدافعوا عنها كلامياً، فلم تتخذ صبغة كلامية إلا حينما بحثها المعتزلة تحت عنوان (المنزلة بين المنزلتين).

وقد أدى البحث في مسألة الجبر والاختيار بدوره إلى مسألة العدل والحسن والقبح العقلي والذاتي، وأن أفعال الباري تعالى معللة بالأغراض واستحالة التكليف بغير المقدور، وأمثال ذلك.

وفي النصف الأول من القرن الثاني للهجرة صدع شخص اسمه (جهم بن صفوان) بأفكار مخصوصة حول صفات الله تعالى، ويدعي أرباب الملل والنحل أنه أول من قال بمسألة التوحيد في الصفات وأنّ صفات الله ليست خارجة عن ذاته - وهو ما انفرد المعتزلة بجعله (أصل التوحيد) - ومسألة نفي التشبيه وأن الله سبحانه لا يشبَهه شيئاً من مخلوقاته (أصل التنزيه) هو جهم بن صفوان، وقد أُطلق على أتباعه

٨ راجع كتاب (الإنسان والمصير).

تسمية (الجهمية)، وكما تبع المعتزلة القدرية في القول باختيار الإنسان، فقد تبعوا الجهمية في القول بالتوحيد والتنزيه، هذا وقد كان جهم بن صفوان جبرياً، إلا أن المعتزلة رفضوا جبريته وارتأوا توحيده، وعليه يكون المعتزلة في أصلين من أصولهم الخمسة تبعاً لهاتين الفرقتين: إذ أخذوا (أصل التوحيد) من الجهمية، و(أصل العدل) من القدرية، بل أن الاعتزال ما هو إلا امتداد وتكامل للقدرية والجهمية.

إنّ رأس المعتزلة هو (واصل بن عطاء)؛ فقد تقدم أن ذكرنا أن واصل بن عطاء كان تلميذاً للحسن البصري، وأنه ترك حلقة درسه في حادثة معينة، وأسس لنفسه حلقة درسية خاصة فقال الحسن البصري: (اعتزل عنا)، هذا هو رأي المشهور، وهناك رأي يذهب إلى أن سبب هذه التسمية أن كلمة المعتزلة أول ما أُطلقت على مجموعة اعتزلت النزاع في حرب الجمل وصفين من قبيل: سعد بن أبي وقاص وزيد بن ثابت وعبد الله بن عمر، ثم انقسم المسلمون بعد ذلك حينما تحدث الخوارج حول كفر الفاسق وإيمانه إلى قسمين، واختار جمع طريقاً ثالثاً وهو الاعتزال، أي كما صنع أمثال سعد بن أبي وقاص في المسائل السياسية والاجتماعية فأطلقت عليهم تسمية (المعتزلة) أيضاً.

ولد واصل بن عطاء سنة 80 هـ، توفي سنة 131 هـ، وقد انحصرت بحوثه في نفي الصفات والاختيار والمنزلة بين المنزلتين والوعد والوعيد، والحكم بشأن بعض اختلافات الصحابة.

ثم جاء دور عمرو بن عبيد (أخو زوجة واصل) فوسع من نظريات واصل وقام بتكميلها، وبعده برز أبو الهذيل العلاف وإبراهيم النظام،

وهما من رجال المعتزلة البارزين، وعلى يديهما اتخذ الكلام صبغة فلسفية، إذ كان أبو الهذيل يقرأ كتب الفلاسفة ويرد عليها، وجاء النظام بآراء مخصوصة في الطبيعيات، وهو الذي ابتكر نظرية تركب الجسم من ذرّات، وقد توفي كل من أبي الهذيل والنظام في القرن الهجري الثالث، إذ يحتمل قوياً أن أبا الهذيل توفي سنة 235 هـ، والنظام سنة 231 هـ.

كما أن الجاحظ الأديب المعروف صاحب كتاب (البيان والتبيين) الذي عاش في القرن الثالث، من كبار رجال المعتزلة.

لم تكن للمعتزلة صلة وثيقة بالجهاز الحاكم في خلافة بني أمية، وفي أوائل الدولة العباسية لزموا جانب الحياد، ولكن في أيام المأمون - الذي كان من أهل الفضل والعلم والفلسفة والأدب - اهتم الحكام بآرائهم، فتمتعوا بدعم المأمون والمعتصم والواثق، إذ كان هؤلاء الخلفاء الثلاثة يرون أنفسهم من المعتزلة.

وفي تلك البرهة الزمنية احتدم نقاش حاد وسرى في جميع بقاع الدولة الإسلامية، وهو هل كلام الله من صفات الفعل أو هو من صفات الذات؟ وهل هو حادث أو قديم، كعلم الله وقدرته وحياته؟ وهل أنّ القرآن الذي هو كلام الله مخلوق وحادث، أو هو قديم وغير مخلوق؟

ذهب المعتزلة إلى أن كلام الله مخلوق، وعليه يكون القرآن مخلوقاً وحادثاً، وأن من يقول بقدم القرآن فهو كافر، واعتقد مخالفوهم بعكس ذلك؛ إذ ذهبوا إلى قدم القرآن وعدم خلقه، فأصدر المأمون كتاباً عاضد فيه المعتزلة وتوعد فيه من يذهب إلى قدم القرآن، وبذلك

تعرض كثيرون إلى السجن والتعذيب.

ثمَّ تابع المعتصم والواثق سياسة المأمون، وكان من الذين أودعوا السجن في تلك البرهة أحمد بن حنبل، حتى جاء دور المتوكل الذي كان يحمل ميولاً مناهضة للاعتزال، فصار أغلب الناس يخالفون المعتزلة، وسارت الأمور في الاتجاه المعاكس، وحلت النكبة بالمعتزلة وتم استئصالهم، وأريقت دماء كثيرة في هذه الفتنة، حتى سمى المسلمون تلك الحقبة الزمنية بـ (أيام المحنة).

وبعد هذه الواقعة لم يتمكن المعتزلة من النهوض، وتركوا الساحة لمخالفيهم من أهل السنة والحديث إلى الأبد، ولكن برغم ضعفهم فقد برز منهم بعض الشخصيات من قبيل: أبي القاسم البلخي، المعروف ب بـ(الكعبي) (ت: 319 هـ)، وأبي على الجُبّائي (ت: 303 هـ) وابنه أبي هاشم الجُبّائي، والقاضي عبد الجبار المعتزلي (ت: 415 هـ)، وأبي الحسين الخياط، والصاحب بن عباد، والزمخشري (ت: 583 هـ)، وأبي جعفر الإسكافي.

## أسئلة الدرس الخامس

### ضع صح أو خطأ في ما يلي:

| | صح | خطأ |
|---|---|---|
| 1 - لا يوجد موجود قديم في الكون سوى الله. | | |
| 2 - إن أفعال الإنسان مخلوقة لله. | | |
| 3 - يؤمن المعتزلة بقدم العالم. | | |
| 4 - الإنسان حر مختار وليس مجبوراً. | | |
| 5 - يؤمن المعتزلة بتقديم العقل على الحديث عند التعارض بينهما. | | |
| 6 - سلم المعتزلة للفلسفة اليونانية. | | |
| 7 - يؤمن المعتزلة بالاختيار. | | |
| 8 - شهد القرن الثاني الهجري انقساماً حول الجبر والاختيار. | | |
| 9 - أخذ المعتزلة أصل التوحيد من القدرية. | | |
| 10 - قضى المتوكل على مذهب المعتزلة. | | |

### أجب على الأسئلة التالية:

1 - عدد بعض الأمور التي تحدث بها المعتزلة.

..........................................................................................

..........................................................................................

2 - أذكر سبب تسمية المعتزلة باسمهم.

..........................................................................................

.......................................................................................................................................

3 - أذكر رأي المعتزلة في أمر قدم القرآن أو حدوثه.

.......................................................................................................................................

.......................................................................................................................................

الدرس 6

# الأشاعرة

اتضح مما سبق: أن الأفكار التي أدت إلى ظهور الاعتزال بدأت في النصف الثاني من القرن الأول، وفي الحقيقة إن طريقة الاعتزال قامت على استخدام المنطق والاستدلال في فهم أصول الدين، وبديهي أنّ أول ما يشترط في هذه الطريقة هو الإيمان بحجية العقل وحريته واستقلاله، وبديهي أيضاً إن عامة الناس لا شأن لهم بالتعقل والتفكير والبحث ويرون أنّ (التديّن) يساوي (التعبد) والتسليم بظواهر الآيات والأحاديث ـ وخاصة الأحاديث ـ ويرون كل تفكير واجتهاد نوعاً من التمرد على الدين، خصوصاً مع دعم الساسة لهذا النمط من التفكير رعاية لمصالحها، وعلى الأخص إذا آمن علماء الدين بالظواهر وتعصبوا لها من الناحية العملية وقاموا بترويجها. ومن أمثلة ذلك هجمات الأخباريين على الأصوليين والمجتهدين، وهجمات بعض الفقهاء والمحدثين على الفلاسفة في العالم الإسلامي.

لقد اهتم المعتزلة اهتماماً بالغاً بفهم الإسلام ونشره والدفاع عنه في مواجهة الدهريين واليهود والنصارى والمجوس والصابئين والمانوية وغيرهم، فعملوا على إعداد المبلغين وإرسالهم إلى أطراف البلاد الإسلامية، إلا أنهم تعرضوا ـ في الوقت نفسه ـ إلى خطر دعاة الأخذ بالظواهر من الذين يرون أنفسهم من (أهل الحديث) و(أهل السنة)،

الذين طعنوهم في ظهورهم مما أدى إلى إضعافهم وزوالهم تدريجاً.

وعليه ففي بداية الأمر ـ أي حتى أواخر القرن الثالث وبدايات القرن الرابع للهجرة ـ لم يكن هناك مذهب كلامي ـ كالذي ظهر فيما بعد ـ ليعارض المعتزلة، واقتصر النزاع مع المعتزلة على أن أفكارهم تتعارض مع ظواهر الحديث والسنة، وكان زعماء أهل الحديث من قبيل: مالك بن أنس وأحمد بن حنبل يرون حرمة البحث والاستدلال في المسائل الإيمانية، وبذلك لم يقتصر الأمر على عدم امتلاك أهل السنة لمذهب كلامي في قبال المعتزلة، بل قد أنكروا الكلام والتكلم من الأساس.

وفي نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع للهجرة برز مفكر درس الاعتزال عدة سنوات على يد القاضي عبد الجبار المعتزلي، ثم ترك الاعتزال والتحق بأهل السنة، ولم يكن هذا المفكر سوى أبي الحسن الأشعري (ت: 330 هـ) الذي ساعده تمتعه بشيء من النبوغ واستيعابه لأسس الاعتزال على أن يقيم جميع أصول السنة على أسس استدلالية مخصوصة، فأوجد مذهباً فكرياً يحظى بدقة نسبية، وأجاز – خلافاً لقدماء أهل الحديث كأحمد بن حنبل – البحث الاستدلالي واستخدم المنطق في أصول الدين، واستدل على مدّعاه بالقرآن والسنة وكتب في ذلك رسالة بعنوان: (رسالة في استحسان الخوض في علم الكلام)[9].

وبذلك انقسم أهل الحديث إلى طائفتين (الأشاعرة) أتباع أبي الحسن الأشعري الذي أجاز الكلام، و(الحنابلة) أتباع أحمد بن حنبل

٩ طبعت هذه الرسالة في ذيل كتاب (اللُمَع)، ونقلها عبد الرحمن بدوي في الجزء الأول من كتابه (مذاهب الإسلاميين) ص26-15.

الذي حرّم الكلام، وقد تقدم في دروس المنطق أن لابن تيمية كتاباً في تحريم المنطق[10].

ومن ناحية أخرى فقد حلّت نقمة الناس في (أيام المحنة) بالمعتزلة أيضاً، ذلك أنّ المعتزلة اغتنموا فرصة دعم الحكام لهم، فحاولوا إجبار الناس على إتباع آرائهم واعتناقها، ومنها القول بحدوث القرآن، الأمر الذي عرّض الكثير للقتل والسجن والتعذيب والتشريد مما أثار حفيظة المسلمين وسخطهم على المعتزلة واعتبارهم السبب في هذه الحوادث.

ومن هنا فقد رحّب الناس بمذهب الأشعري الذي دعم أسسه أشخاص آخرون منهم القاضي أبو بكر الباقلاني المعاصر للشيخ المفيد والمتوفى سنة 403 هـ، وأبو إسحاق الإسفراييني وهو من طبقة الباقلاني والسيد المرتضى، وإمام الحرمين الجويني، وتلميذه الإمام الغزالي صاحب (إحياء علوم الدين)، (ت: 505 هـ) والإمام الفخر الرازي.

ثمَّ طرأت على المذهب الأشعري تغييرات تدريجية خصوصاً على يد الغزالي الذي خفّف من صبغته الكلامية وأعطاه صبغة عرفانية، وعلى يد الإمام الفخر الرازي الذي بالغ في التقرب من الفلسفة، وبعد أنّ ألف الخواجة نصير الدين الطوسي كتاب (تجريد الاعتقاد) 90 % من الكلام صبغة فلسفية، وبعد ذلك سار جميع المتكلمين ـ أعم من الأشاعرة والمعتزلة ـ في الطريق الذي سلكه هذا الفيلسوف والمتكلم الشيعي الكبير.

فترى أن كتباً من قبيل (المواقف) و(المقاصد) وشروحهما سلكت

١٠ راجع كتاب (ابن تيمية) لمحمد أبو زهرة.

الطريق الذي سلكه كتاب (التجريد)، وفي الحقيقة مع تقدم الزمن ابتعد الأشاعرة عن آراء زعيمهم أبي الحسن الأشعري، واقتربوا من الاعتزال والفلسفة.

وفيما يلي نقدم إليك فهرة بآراء الأشعري التي دافع فيها عن أصول (أهل السنة)، أو قام بتأويلها وبتبريرها:

1- عدم اتحاد الصفات مع الذات (خلافاً للمعتزلة والفلاسفة).

2- عموم الإرادة والقضاء والقدر الإلهي لجميع الحوادث (خلافاً للمعتزلة دون الفلاسفة).

3- إنّ الشرور كالخيرات صادرة من الله أيضاً (وهذا الرأي لازم للرأي المتقدم).

4- عدم اختيار الإنسان، لكون أفعاله مخلوقة لله (وهو كسابقه لازم للرأي المتقدم).

5- الحسن والقبح ليس ذاتياً بل هو شرعي، كما أن العدل شرعي وليس عقلياً (خلافاً للمعتزلة).

6- لا يجب على الله مراعاة اللطف والأصلح (خلافاً للمعتزلة).

7- قدرة الإنسان على الفعل مقارنة له وليست متقدمة عليه (خلافاً للفلاسفة والمعتزلة).

8- التنزيه المطلق، أي ليس هناك أي شبه ومماثلة بين الله وما سواه (خلافاً للمعتزلة).

9- الإنسان ليس خالقاً لعمله، بل هو مكتسب له (تبرير رأي أهل السنة في باب خلق الأعمال).

10- إمكان رؤية الله بالعين يوم القيامة (خلافاً للمعتزلة والفلاسفة).

11- (الفاسق) مؤمن، (خلافاً للخوارج الذين ذهبوا إلى كفره، والمعتزلة الذين ذهبوا إلى القول بالمنزلة بين المنزلتين).

12- لا محذور في غفران الله وصفحه عن العبد قبل التوبة، ولا محذور في تعذيب المؤمن (خلافاً للمعتزلة).

13- نفي البأس عن الشفاعة (خلافاً للمعتزلة).

14- عدم جواز خلف الله لوعده.

15- العالم حادث زماناً (خلافاً للفلاسفة).

16- قدم كلام الله - أي الكلام النفسي دون اللفظي - (تبريراً لرأي أهل السنة).

17- إمكان التكليف بغير المقدور (خلافاً للفلاسفة والمعتزلة).

وقد أكثر أبو الحسن الأشعري من التأليف، حتى قيل: إن له مئتي كتاب، وأحصت له كتب التراجم حوالي مئة كتاب، تعرض أكثرها - كما يبدو - إلى الضياع، وأشهر كتبه (مقالات الإسلاميين) وهو مطبوع، إلا إنه مشوش وغير منظم، و(اللُّمع) وهو مطبوع أيضاً، وربما طبعت له كتب أخرى.

وللأسف الشديد فقد تركت آراء أبي الحسن الأشعري وأفكاره تأثيراً كبيراً على العالم الإسلامي، إلا أنها نوقشت فيما بعد من قبل الفلاسفة والمعتزلة، وقد ردّ أبو علي بن سينا الكثير من آرائه في كتاب (الشفاء) دون تصريح باسم صاحبها، بل أن بعض أتباعه وأنصاره

من قبيل القاضي أبي بكر الباقلاني وإمام الحرمين الجويني أعاد النظر في آرائه حول الجبر وخلق الأعمال.

هذا وإن محمد الغزالي وإن كان أشعرياً وقد رسّخ من أصول الأشاعرة، إلا أنه أضاف إليها أسساً أخرى قربت الكلام إلى العرفان والتصوف، كما كان مولانا محمد الرومي صاحب كتاب (المثنوي) أشعرياً، إلا أن إمعانه في العرفان أعطى جميع المسائل صبغة أخرى، كما أدى تأثر الإمام الفخر الرازي بأفكار الفلاسفة إلى قوة الكلام الأشعري.

لقد ترك انتصار الأشاعرة وسيادتهم آثاراً سيئة على العالم الإسلامي، إذ كان انتصاراً للجمود والسطحية على الحرية الفكرية، ومهما كان النزاع بين الأشاعرة والمعتزلة مرتبطاً بعالم التسنن، إلا أن الشيعة لم يسلموا أيضاً من بعض آثار الجمود الأشعري، وقد كان لانتصار الأشاعرة أسباب تاريخه واجتماعية مخصوصة، كما كان لبعض الحوادث السياسية آثار كبيرة في هذا الانتصار.

لقد كان المأمون ـ كما أشرنا ـ رجلاً عالماً، وقد أظل المعتزلة بدعمه وحمايته، ثمَّ واصل المعتصم والواثق سياسته في دعم المعتزلة، حتى جاء المتوكل الذي قلب ظهر المجن للمعتزلة فكان له دورٌ كبير في انتصار مذهب أهل السنة الذي شاده أبو الحسن الأشعري على أسس كلامية بعد حوالي قرنٍ من الزمن، ولو كان للمتوكل أسلوب المأمون في التفكير لما وصل الاعتزال إلى هذه النتيجة الماحقة.

كما كان لانتصار السلاجقة الأتراك في إيران تأثيراً كبيراً في

سيادة أفكار الأشعري، إذ لم يكن السلاجقة من أنصار العلم والحرية الفكرية، خلافاً للبويهيين الذين كان فيهم من هو من أهل العلم والفضيلة والأدب الأمر الذي أدى إلى انتعاش المذهب الشيعي والمعتزلي في ظل حكمهم، وقد كان ابن العميد والصاحب بن عباد وزيرين وعالمين في بلاط البويهيين، وكانا مخالفين للأشاعرة.

ونحن لا نروم الدفاع عن آراء المعتزلة - إذ سيتضح فيما بعد ضعف الكثير من آرائهم - إلا أن الجدير بالتقدير والاستحسان في المعتزلة والذي اندثر بزوالهم هو أسلوبهم العقلي، وكما نعلم فإن ديناً غنياً وحيوياً كالدين الإسلامي بحاجة إلى كلام يؤمن بحرية العقل إيماناً راسخاً.

# أسئلة الدرس السادس

## ضع صح أو خطأ في ما يلي:

| | صح | خطأ |
|---|---|---|
| 1 - يرى العامة أن كل تفكير أو اجتهاد تمرد على الدين. | | |
| 2 - واجه المعتزلة دعاة الأخذ بالظواهر. | | |
| 3 - يرى أهل الحديث حرمة البحث في الأمور الإيمانية. | | |
| 4 - نشأ الفكر الأشعري على يد أبي موسى الأشعري. | | |
| 5 - أعطى الغزالي الفكر الأشعري صبغة عرفانية. | | |
| 6 - إن الخير والشر صادران من الله كما يرى الأشعري. | | |
| 7 - يؤمن الأشاعرة أن الإنسان خالق لأعماله. | | |
| 8 - ترك الأشاعرة جموداً على الحرية الفكرية. | | |
| 9 - دعم المأمون الفكر الأشعري. | | |
| 10 - أحصي للأشعري مئة كتاب. | | |

## أجب على الأسئلة التالية:

1 - تحدث عن نشأة الأشاعرة.

.................................................................................

.................................................................................

2 - أذكر بعض آراء أبي الحسن الأشعري.

.................................................................................

3 - تحدث عن سبب انتصار الأشعرية وانتشارها.

7
الدرس

# الشيعة (١)

نتحدث في هذا الدرس عن الشيعة باختصار، فنقول: إن للكلام - بمعنى الاستدلال العقلي والمنطقي على أصول العقيدة الإسلامية - مكانة مخصوصة وممتازة عند الشيعة.

إن الكلام الشيعي كما هو معجون بالفلسفة الشيعية، فهو منبثق أيضاً من بطون الأحاديث الشيعية، وقد تقدم أن أهل السنة اعتبروا الكلام تياراً مناهضاً للحديث والسنة، في حين أن الشيعة لا يحملون هذا الانطباع عن الكلام، بل يرونه نابعاً من صميم الأحاديث والسنة.

والسرّ في ذلك أن الأحاديث الشيعية - خلافاً للأحاديث عند أبناء العامة - تحمل في ثناياها استدلالات منطقية على المسائل المعدة التي ترتبط بما وراء الطبيعة أو المسائل الاجتماعية.

وهذا ما لا تجده في أحاديث أهل السنة، فقد تحدثت رواياتهم عن القضاء والقدر، وإرادة الله تعالى وأسمائه وصفاته، والروح والإنسان وعالم الحساب وما بعد الموت والكتاب والصراط والميزان والإمامة والخلافة وأمثال ذلك دون أي توضيح أو تحقيق بشأنها، في حين أن الروايات الشيعية ذكرت جميع هذه المسائل مع الاستدلال عليها، وللوقوف على هذه الحقيقة يمكنك مقارنة أبواب الحديث في الصحاح الستة بما هو موجود في كتاب (الكافي) للشيخ الكليني.

وعليه، فإن (الكلام) بمعنى التفكير العقلي ودراسة الأمور ذهنياً كامن في صلب الأحاديث الشيعية، ولذلك لم ينقسم الشيعة - خلافاً للسنة - إلى (أهل الحديث) و(أهل الكلام).

وقد ذكرنا في الدروس الماضية - اعتماداً على المصادر السنية - أن أول مسألة شاعت بين المسلمين بوصفها أصلاً اعتقادياً هي مسألة (كفر الفاسق) التي أثارها الخوارج في النصف الأول من القرن الهجري الأول، وبعد ذلك أثيرت مسألة الاختيار والحرية على يد معبد الجهني وغيلان الدمشقي خلافاً لما يراه بنو أمية ويروجونه بين الناس، وفي النصف الأول من القرن الهجري الثاني أثار جهم بن صوان مسألة اتحاد الصفات مع الذات، بعد ذلك بادر واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد إلى تأسيس الاعتزال فأخذا مبدأ الحرية والاختيار من معبد وغيلان، ووحدة الذات والصفات من جهم بن صفوان، وابتكرا مسألة (المنزلة بين المنزلتين) بشأن كفر الفاسق وإيمانه، كما ناقشا أموراً أخرى.

ومن هنا جرى ديدن المستشرقين - والمعنيين بدراسة التاريخ الإسلامي - في تفسير ظاهرة نشوء الكلام الإسلامي والبحوث العقلية في الإسلام، جاهلين أو متجاهلين الاستدلالات العقلية العميقة التي أقامها الإمام علي بن أبي طالب(ع)، فكان أول من صدع بالبحوث العقلية حول المعارف الإسلامية في خطبه وكلماته ومناقشاته، إذ تحدث عن ذات الباري تعالى وصفاته، والحدوث والقِدم، والبساطة والتركيب، والوحدة والكثرة، وغيرها من البحوث العميقة المذكورة في

نهج البلاغة وروايات الشيعة الموثوقة، إلا أنها مُشّربة بصبغة روحية ميزتها عن نمط الكلام عند المعتزلة والأشاعرة، بل وبعض علماء الشيعة المتأثرين بكلام من عاصرهم، وهذا ما بحثناه في كتاب (في رحاب نهج البلاغة) ومقدمة الجزء الخامس من كتاب (أسس الفلسفة والمذهب الواقعي).

يذعن المؤرخون من أهل السنة بأن العقل الشيعي كان فلسفياً منذ البداية وأن طريقة التفكير الشيعي كانت عقلية واستدلالية من أول الأمر، فلم يقتصر الفكر الشيعي على مجرد الاختلاف مع الحنابلة الذين أنكروا الاستدلال على العقائد المذهبية أساساً، والأشاعرة الذين جردوا العقل من أصالته ورأوه تابعاً للظواهر، بل تعداه إلى الاختلاف مع المعتزلة أيضاً، ذلك أن التفكير المعتزلي وإن كان عقلياً إلا إنه جدلي وليس برهانياً[11]. ومن هنا كانت الأكثرية الساحقة من الفلاسفة المسلمين من الشيعة، فلم يحافظ على حياة الفلسفة الإسلامية سوى الشيعة، وقد استمدوا هذه الروح من أئمتهم (عليهم السلام) وعلى الخصوص من الإمام علي بن أبي طالب(ع).

فقد بادر الفلاسفة الشيعة متأثرين بالقرآن وأحاديث المعصومين (عليهم السلام) إلى ترسيخ العقائد الإسلامية الأصلية دون تحويل الفلسفة إلى كلام أو تغييرها من الحكمة البرهانية إلى الحكمة الجدلية، وعليه إذا أردنا إحصاء المتكلمين الشيعة آخذين بنظر الاعتبار كل من أعمل التفكير العقلي بشأن العقائد الإسلامية الشيعية فسوف يدخل

١١ قد بيّنا في دروس (كليات الفلسفة) الفرق بين الحكمة والمشائية والإشراقية، والذوقية، والحكمة الجدلية، أي: الكلام الأشعري والمعتزلي.

في ضمن المتكلمين الشيعة جمع من رواة الحديث والفلاسفة الشيعة، إذ كما قلنا فإن كلاً من الحديث الشيعي والفلسفة الشيعية أنجزا وظيفة الكلام أفضل من علم الكلام نفسه، وأما إذا أردنا من المتكلمين خصوص من تسلح بالحكمة الجدلية تحت تأثير الكلام المعتزلي والأشعري، فلا نجد أمامنا سوى مجموعة مخصوصة، إلا أننا لا نجد مبرراً للاقتصار على تلك المجموعة فقط.

وإذا تجاوزنا كلمات الأئمة الأطهار (عليهم السلام) الواردة بشأن (العقائد) في خطبهم ورواياتهم وأدعيتهم، سنجد أن أول من ألف كتاباً في (العقائد) من الشيعة هو علي بن إسماعيل بن ميثم التمار (حفيد ميثم التمار الخطيب المفوه، وصاحب سر أمير المؤمنين(ع))، وقد عاصر علي بن إسماعيل عمراً بن عبيد وأبا الهذيل العلاف، وهما من كبار المتكلمين في النصف الأول من القرن الثاني، ومن المؤسسين الأوائل للكلام المعتزلي.

وهناك من بين أصحاب الإمام الصادق(ع) من عدّهم الإمام نفسه من (المتكلمين) الكبار، من قبيل: هشام بن الحكم، وهشام بن سالم، وحُمران بن أعين، وأبي جعفر الأحول المعروف بـ(مؤمن الطاق)، وقيس بن ماصر، وغيرهم.

وهناك حديث في الكافي ناقش فيه هؤلاء النفر من أصحاب الإمام الصادق(ع) أحد المخالفين بحضور إمامهم، مما أدخل السرور على قلب الإمام(ع).

وقد نشأت هذه المجموعة وترعرعت على يد الإمام الصادق(ع)

في النصف الأول من القرن الهجري الثاني أيضاً، مما يدل على عدم اقتصار الأئمة من أهل البيت (عليهم السلام) على مباشرة البحث والتحقيق في المسائل الكلامية بأنفسهم، بل تعدوه إلى تربية تلاميذهم وحثهم على ممارسة البحوث الاعتقادية، فكانت شهرة هشام بن الحكم مستمدة من علم الكلام دون الفقه أو الحديث أو التفسير، وقد أفرد له الإمام الصادق(ع) مكانة مرموقة ميّزته عن سائر أصحابه، حتى اتفقت كلمة الجميع على أن سبب تكريم الإمام الصادق(ع) له يكمن في كونه متكلماً.

وفي الواقع أراد الإمام الصادق(ع) من خلال تقديمه هشام المتكلم على غيره من أرباب الفقه والحديث بيان أهمية البحوث الاعتقادية، وتقدم الكلام على الفقه والحديث، وبديهي أن هذه السلوكية من الأئمة المعصومين (عليهم السلام) تركت تأثيراً بالغاً على انتشار علم الكلام، وأن تكون العقلية الشيعية عقلية كلامية وفلسفية من أول الأمر.

وقد كان الإمام الرضا(ع) يحضر بنفسه في مجالس البحث التي كان المأمون يعقدها للمتكلمين من سائر المذاهب، على ما هو مذكور في متون الكتب الشيعية.

وكما تجاهل المستشرقون جهود أمير المؤمنين(ع)، فقد تجاهلوا أيضاً جميع الجهود التي بذلها الأئمة الأطهار (عليهم السلام) بشأن إحياء البحوث العقلية في الأمور الاعتقادية والدينية، هذا مما يدعو إلى الدهشة والاستغراب.

وكان الفضل بن شاذان النيشابوري - من أصحاب الإمام

الرضا(ع) والإمام الجواد(ع) والإمام الهادي(ع) - متكلماً مضافاً إلى كونه فقيهاً ومحدثاً، وقد نُقلت عنه كتب كثيرة في الكلام، وقبره مشهود في نيشابور.

ويبدو أن غالبية آل نوبخت - وهم كثيرون - كانوا من المتكلمين كالفضل بن أبي سهل ابن نوبخت الذي أدار في عهد هارون المكتبة المعروفة بـ(دار الحكمة)، وكان من المترجمين من الفارسية إلى العربية، وإسحاق بن أبي سهل بن نوبخت، وابنيه إسماعيل وعلي وحفيده أبي سهل إسماعيل بن علي النوبختي الملقب بين الشيعة بـ(شيخ المتكلمين)، والحسن بن موسى النوبختي وهو ابن أخت إسماعيل بن علي، وعدد من هذه الأسرة.

وكان ابن قُبّة الرازي من المتكلمين الشيعة في القرن الهجري الثالث، وأبو علي بن مسكويه الحكيم والطبيب المعروف وصاحب كتاب (طهارة الأعراق) من المتكلمين الشيعة في بداية القرن الهجري الخامس.

وكان الخواجة نصير الدين الطوسي الفيلسوف والرياضي الشهير وصاحب كتاب (تجريد الاعتقاد)، والعلامة الحلي الفقيه المعروف وشارح (تجريد الاعتقاد) من كبار المتكلمين الشيعة في القرن الهجري السابع.

فقد بادر الخواجة نصير الدين الطوسي - وهو الحكيم المعروف والفيلسوف المتبحر - إلى إبداع أقوى أثر كلامي من خلال تأليفه كتاب (تجريد الاعتقاد) إذ اهتم به كل من تلاه من المتكلمين سنة وشيعة، وقام الخواجة نصير الدين - إلى حدٍّ كبير - بإخراج الكلام من الحكمة

الجدلية، وتقريبه من الحكمة البرهانية، حتى فَقَدَ الكلام أسلوبه الجدلي بعد أن مال الجميع إلى الحكمة البرهانية، بل في الحقيقة فقد (الكلام) استقلاله تجاه (الفلسفة)، حتى أخذ الفلاسفة الشيعة - المتأخرون عن الخواجة - يذكرون المسائل الكلامية في الفلسفة، وقاموا ببحثها ومناقشتها فلسفياً، فحالفهم النجاح أكثر من المتكلمين الذي اعتادوا دراسة الأمور بالأساليب القديمة، فمثلاً تجد أن صدر المتألهين والحاج ملا هادي السبزواري وإن لم يكونا في زمرة المتكلمين، إلا أن تأثيرهم الوجودي كان أكثر من أي متكلم آخر.

## أسئلة الدرس السابع

### ضع صح أو خطأ في ما يلي:

| | صح | خطأ |
|---|---|---|
| 1 - يحظى العقل بمكانة مميزة في الفكر الشيعي. | | |
| 2 - انقسم الشيعة إلى أهل الحديث وأهل الكلام. | | |
| 3 - إن العقل الشيعي كان فلسفيا منذ بدايته. | | |
| 4 - أول من ألف كتاباً في العقائد من الشيعة هو علي بن ميثم التمار. | | |
| 5 - كان هشام بن الحكم معروفاً بالحديث والفقه. | | |
| 6 - يلقب اسماعيل بن علي النوبختي بشيخ المتكلمين. | | |
| 7 - كتاب تجريد الاعتقاد يعود إلى الفخر الرازي. | | |
| 8 - لم يفقد الكلام استقلاله عند الشيعة. | | |
| 9 - يعتبر صدر المتألهين من أعاظم المتكلمين. | | |
| 10 - خالف الشيعة الأشاعرة في استدلالهم على العقائد بالعقل. | | |

### أجب على الأسئلة التالية:

1 - تحدث عن دور العقل والاستدلال عند الشيعة.

..............................................................................................................

..............................................................................................................

2 - تحدث عن اهتمام الأئمة (ع) بعلم الكلام.

..............................................................................................................

..........................................................................................................................................................................................................................................

3 - أذكر دور الخواجة نصير الدين الطوسي في علم الكلام.

..........................................................................................................................................................................................................................................

..........................................................................................................................................................................................................................................

الدرس 8

# الشيعة (٢)

يجدر بنا في هذا الدرس أن نبيّن - على نحو الإجمال - آراء الشيعة حول المسائل الكلامية الشائعة بين المسلمين.

تقدم أنّ المعتزلة يذهبون إلى خمسة أصول كأركان لمذهبهم وهي عبارة عن: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقلنا: إن خصوصية هذه الأصول تكمن في أنها تميّز الاعتزال عن سائر المذاهب الأخرى، فلا يذهبّن بك التصور إلى أن ما سوى هذه الأصول الخمسة من الفروع عند المعتزلة.

كما ذكر علماء الشيعة - دون أئمتهم - للتشيع منذ القدم خمسة أصول، هي: التوحيد، والعدل، والنبوة، والإمامة، والمعاد.

وتسمى هذه الأصول عادة بـ(أصول الدين)، وإن ما سواها، من الفروع. وعندها يرد هذا السؤال: إذا كان المراد من أصول الدين، الأصول التي تعتبر شرطاً في الإسلام، فليس هناك شرط وراء مفاد الشهادتين من التوحيد والنبوة، والمراد من النبوة خصوص نبوة خاتم الأنبياء(ص) دون النبوة العامة التي تعني نبوة سائر الأنبياء وذلك لأن النبوة العامة خارجة عن محتوى الشهادتين، مع أن نبوة جميع الأنبياء جزءٌ من أصول الدين التي يجب الإيمان بها والاعتقاد بها.

وإذا كان المراد من أصول الدين الأصول التي يرى الإسلام وجوب

الإيمان بها دون الاكتفاء بمجرد امتثالها من الناحية العملية، فهناك أمور أخرى غير هذه الأصول الخمسة من قبيل: الإيمان بالملائكة، قال تعالى: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ}[12]، هذا مضافاً إلى أنه لا خصوصية للعدل على سائر صفات الله تعالى من قبيل: العلم، والحياة، القدرة والسميعية، والبصيرية، ليدخل في نطاق الأمور التي يجب الإيمان بها دونها، فإذا كان الإيمان بصفات الله واجباً فلا بد من الإيمان بها جميعاً، وإن لم يكن واجباً فلا يجب الإيمان بها جميعاً.

وجوابه: أن اختيار هذه الأصول الخمسة إنما هو لأجل تحديد الهوية الإسلامية من جهة، ولتمييز المذهب من جهة أخرى، فإن التوحيد والنبوة والمعاد من الأمور التي يجب الإيمان بها على كل مسلم.

وأما أصل العدل فإنه يحدد هوية التشيع ويميزه عن غيره، فإن العدل وإن لم يختلف عن العلم والحياة والقدرة إلا أنه من الأصول التي تحدد رؤية التشيع للإسلام في قبال بعض المذاهب الأخرى.

وأما أصل الإمامة فيحتوي على كلتا الجهتين، فهو داخل في نطاق الأمور التي يجب الإيمان بها، كما هو داخل أيضاً فيما يحدد الهوية الشيعية.

وأما ما كان من قبيل الإيمان بالملائكة فهو وإن كان واجباً بنص القرآن، إلا أن الأصول المتقدمة داخلة في الأمور التي استهدفها الإسلام ودعا رسول الله(ص) الناس إلى الإيمان بها، وكانت رسالته مقدمة

١٢ سورة البقرة، الآية 285.

للإيمان بها، وأما الإيمان بالملائكة وكذلك الاعتقاد بجميع ضروريات الدين من قبيل الصلاة والصيام فلم يكن من أهداف الرسالة، وإنما هو من لوازمها، فهو من لوازم الإيمان بالنبوة وليس من أهدافها.

والآن ندخل في بيان مجموعة العقائد الكلامية عند الشيعة الأعم من الأصول الخمسة وغيرها:

1 - **التوحيد**: وهو جزء من أصول المعتزلة الخمسة أيضاً، كما هو جزء من أصول الأشاعرة، مع فارق أن التوحيد الذي يميز المعتزلة هو التوحيد في الصفات الذي ينكره الأشاعرة، وان التوحيد الذي يميز الأشاعرة هو التوحيد في الأفعال الذي ينكره المعتزلة.

وقد تقدم أن التوحيد الذاتي والتوحيد في العبادة خارج عن محل البحث لاتفاق كلمة الجميع عليه.

وأما التوحيد الذي يذهب إليه الشيعة، فهو مضافاً إلى توحيد الذات والتوحيد والتوحيد في العبادة، يشمل التوحيد في الصفات والتوحيد في الأفعال، إلا أن التوحيد في الصفات عند الشيعة يختلف عما هو عليه عند المعتزلة، كما أن التوحيد في الأفعال عند الشيعة يختلف عما هو عليه عند الأشاعرة. فالتوحيد في الصفات عند المعتزلة يعني تفريغ الذات وتجريدها من الصفات، بعبارة أخرى: إن ذات الباري تعالى فاقدة للصفات[13]، بينما التوحيد في الصفات عند الشيعة بمعنى عينية الصفات مع الذات، ومن أراد التفصيل في ذلك فليراجع كتب

١٣ هذا هو راي المعتزلة في توحيد الصفات، قال السبزواري في منظومته:

الأشعري بازدياد قائله          وقال بالنيابة المعتزلة

ولكن يبدو من عباشر بعض المعتزلة كابي الهذيل أنه يريد من التوحيد في الصفات نفس الذي يراه الشيعة.

الشيعة في الكلام والفلسفة.

وأما التوحيد الأفعالي عند الأشاعرة فيعني أن لا تأثير لأي موجود، فكل الآثار تصدر عن الله بالمباشرة، وعليه يكون الله خالقاً مباشراً لأفعال العباد وليس العبد هو الخالق والموجد لعمله وفعله، وهذا هو الجبر المحض الذي أثبتت الأدلة الكثيرة بطلانه. بينما التوحيد الأفعالي عند الشيعة يعني أصالة نظام الأسباب والمسببات، وإن الآثار كما تقوم بأسبابها القريبة تقوم بذات الباري تعالى أيضاً، وهذا القيام والترابط طولي وليس عرضياً[14].

2 - **العدل**: وهو ما اتفقت عليه كلمات الشيعة والمعتزلة، ومعنى العدل أنّ الله سبحانه وتعالى فيض ورحمة، وأن النعمة والبلاء يصدران منه على أساس استحقاق ذاتي سابق، وأنّ نظام الخلقة قائم على نظم مخصوص من الفيض والرحمة، والبلاء والنعمة، والأجر والعقوبة، إلا أن الأشاعرة أنكروا العدل، وأنكروا هذا النظام، ورأوا أنه ملازم لمقهورية ذات الباري تعالى ويتنافى مع قاهريته المطلقة.

وللعدل فروع سنشير إليها في ضمن توضيحنا لسائر الأصول.

3 - **الإرادة والاختيار**: إنّ أصل الإرادة والحرية عند الشيعة يشبه إلى حدٍّ ما الإرادة والاختيار عند المعتزلة، إلا أنّ هناك فرقاً بينهما، فإنّ الإرادة والاختيار عند المعتزلة يساوي (التفويض) وترك الإنسان وشأنه وعدم تأثير مشيئة الله في أفعاله، وهذا - كما هو مسطور في محله - محال طبعاً.

١٤ بغية اتضاح المطلب، راجع كتاب الإنسان والمصير، (إنسان ومرنوشت).

أما الإرادة التي يعتقد بها الشيعة فتعني أن الناس خلقوا أحراراً، إلا أنهم كسائر المخلوقات قائمون بذات الحق تعالى في جميع شؤونهم الوجودية، ويستمدون وجودهم من مشيئة الله وعنايته.

ومن هنا كانت الإرادة عند الشيعة حداً وسطاً بين الجبر الأشعري والتفويض المعتزلي، وهو معنى العبارة المعروفة عن الأئمة الأطهار (عليهم السلام) (لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين).

هذا وإن أصل الإرادة والحرية من المتفرعات عن أصل العدل.

4 - **الحسن والقبح الذاتي**: يرى أن للأفعال في ذاتها حسناً وقبحاً، فالعدل حسن في ذاته، والظلم قبيح في ذاته، والحكيم يفعل الحسن ويتجنب فعل القبيح، وبما أن الله تعالى حكيم، فلازم ذلك أن يفعل الحسن ويتجنب القبيح، وعليه يكون بعض الأفعال (واجباً) على الله وبعضها (قبيحاً).

والأشاعرة يخالفون هذا الرأي بشدة، فإنهم ينكرون الحسن والقبح الذاتي في الأفعال، وينكرون إيجاب شيء أو تحريمه على الله.

وقد ذهب بعض الشيعة - متأثرين بكلمات المعتزلة - إلى القول بالأصل المتقدم على صياغته عند المعتزلة، إلا أن بعضاً آخر تعمقوا في المسألة أكثر، فأذعنوا بوجود الحسن والقبح الذاتي في الأفعال، إلا أنهم لم يجروا ذلك على الساحة الربوبية[15].

5 - **قاعدة اللطف واختيار الأصلح**: هناك بحث بين الأشاعرة والمعتزلة مفاده: هل نظام العالم والوجود محكوم لقاعدة اللطف

١٥ راجع كتاب (العدل الإلهي).

واختيار ما هو أصلح للعباد أولاً؟ يرى المعتزلة أن أصل اللطف أمر واجب على الله، فهو (تكليف) و(وظيفة) مفروضة عليه تعالى، في حين أنكر الأشاعرة ذلك.

وطبعاً إن (قاعدة اللطف) من فروع أصل العدل والحسن والقبح العقلي، وقد تبنى بعض الشيعة قاعدة اللطف على ما هي عليه عند المعتزلة، إلا أن الذين لا يجيزون مسألة (التكليف) و(الوظيفة) على الله، لهم تصور آخر عن أصل اختيار الأصلح، لا مجال لشرحه هنا.

6 - **حجية العقل وأصالته واستقلاله**: إن الحجية والأصالة التي أثبتها التشيع للعقل تفوق الأصالة والحجية التي منحها المعتزلة للعقل، فإن الشيعة يرون - استناداً إلى روايات المعصومين (عليهم السلام) الموثوقة - أن العقل رسول باطني، كما أن النبي عقل ظاهري، حتى عُدّ العقل عندهم واحداً من الأدلة الفقهية الأربعة.

7 - **الغرض والهدف في أفعال الله تعالى**: لقد أنكر الأشاعرة أن تكون أفعال الله صادرة لغرض أو غاية، ويرون ذلك من شؤون ومختصات البشر والمخلوقات التي يتنزه الله عنها، ذلك أن خضوع الفاعل للغايات تعني مقهوريته تجاهها، والله تعالى منزه عن أن يحده أو يقيده شيء وإن كان بمستوى الغرض والغاية.

أما الشيعة فإنهم يؤيدون المعتزلة في وجود الأغراض والأهداف في الأفعال، ويرون أن هناك فرقاً بين غرض الفعل وغرض الفاعل، فالمحال هو خضوع أفعال الله للغايات، وأما الأهداف والغايات التي تعود بالنفع لصالح المخلوقات فلا تتنافى مع كمال ذات الحق وعلوه وغناه الذاتي.

8 - **جواز البداء على الله تعالى**: كما أن النسخ في الأحكام جائز فكذلك البداء، ومن أراد التفصيل فعليه بمراجعة الكتب الفلسفية المطولة كالأسفار الأربعة.

9 - **رؤية الله**: لقد أنكر المعتزلة رؤية الله بشدة، وقالوا: لا يمكن في حق الله تعالى سوى الاعتقاد به - والاعتقاد والإيمان من شؤون الذهن والتفكير - ويرون ذلك أعلى درجات الإيمان، فليس بالامكان رؤية الله ومشاهدته بحال، والدليل على ذلك من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[16].

وأما الأشاعرة فقد أصروا على إمكان رؤية الله، ولكن في يوم القيامة فقط، واستدلوا على المدعى ببعض الروايات والآيات، منها قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[17].

أما الشيعة فيرون استحالة رؤية الله بالعين في الدنيا والآخرة، ولكنهم لا يحدون أعلى مراتب الإيمان باليقين الذهني والفكري، إذ أن اليقين الفكري هو (علم اليقين)، وهناك ما هو أعلى وأسمى منه وهو اليقين القلبي الذي هو (عين اليقين)، والمراد منه مشاهدة الله بالقلب دون العين، وعليه فبالإمكان رؤية الله بعين البصيرة دون الباصرة، وقد سُئل أمير المؤمنين(ع): (هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين؟ فقال: أفأعبد ما لا أرى! فقال: وكيف تراه؟ فقال: لا تراه العيون بمشاهدة العيان ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان)[18].

١٦ سورة الأنعام، الآية 103.

١٧ سورة القيامة، الآية 23-22.

١٨ نهج البلاغة، صبحي الصالح، ص258، الكلمة رقم: 179.

وقد سُئل الأئمة (عليهم السلام) عن رؤية النبي(ص) ربه في المعراج، فقالوا: (لم يره بعينه ولكن بقلبه)، ولا يتفق مع الشيعة في هذه المسألة سوى العرفاء.

10 - **إيمان الفاسق**: وفي هذه المسألة - التي ذكرت مراراً - يتفق الشيعة مع الأشاعرة، دون الخوارج الذين يرون كفر الفاسق، ودون المعتزلة الذين ذهبوا إلى القول بـ(المنزلة بين المنزلتين).

11 - **عصمة الأنبياء والأولياء**: ومن جملة ما يختص به الشيعة القول بعصمة جميع الأنبياء والأئمة (عليهم السلام) من جميع الذنوب سواءً أكانت صغيرة أم كبيرة.

12 - **المغفرة والشفاعة**: وفي هذه المسألة خالف الشيعة المعتزلة في ما ذهبوا إليه من عقيدة جافة ترى عدم إمكان شمول المغفرة والشفاعة للعبد قبل التوبة، كما خالفوا الأشاعرة في أقوالهم الاعتباطية في هذا الخصوص.

## أسئلة الدرس الثامن

### ضع صح أو خطأ في ما يلي:

| | صح | خطأ |
|---|---|---|
| 1 - لدى الشيعة خمسة أصول اعتقادية. | | |
| 2 - يحدد أصل العدل هوية التشيع. | | |
| 3 - يعتبر الإيمان بوجوب الصلاة والصوم من أهداف الرسالة الإسلامية. | | |
| 4 - التوحيد عند الشيعة هو ذاته عند المعتزلة. | | |
| 5 - اتفق الشيعة والمعتزلة على أصل العدل. | | |
| 6 - يؤمن الشيعة بأن الناس خلقوا أحراراً وليسوا مجبورين في أفعالهم. | | |
| 7 - يعود الإيمان باللطف الإلهي إلى أصل العدل. | | |
| 8 - كل فعل له غرض وهدف ومصلحة للإنسان. | | |
| 9 - يمكن مشاهدة الله بالقلب دون العين كما يرى الشيعة. | | |
| 10 - يوافق الشيعة الأشاعرة في مسألة إيمان الفاسق. | | |

### أجب على الأسئلة التالية:

1 - لماذا جعل الشيعة أصول الدين خمسة؟

..............................................................................................................

..............................................................................................................

2 - تحدث عن أصل التوحيد عند الشيعة.

..............................................................................................................

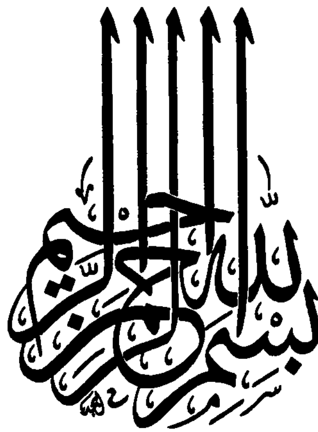
..............................................................................................................

3 - أعرض لدور العقل عند الشيعة.

..............................................................................................................

..............................................................................................................

# الفهرس


بسم الله الرحمن الرحيم